جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بسوهاج

من بلاغة سرد القصص النبوي
حديث أصحاب الغار أنموذجا

إعداد

د./مفيدة محمد حسن

الملخص

من المناهج التي اتخذها النبي ﷺ في دعوته سرد قصص السابقين، وحكاية أخبارهم، وهي قصص واقعية، يذكرها النبي ﷺ؛ لترسيخ المبادئ المُثْلى، والأخلاقيات العُلْيا، بين أفراد المجتمع، وهو من الأساليب الدعوية، والتربوية، القوية في تأثيرها، الشيقة في أدائها، تؤتي ثمارها ثابتة راسخة عن قناعة، حيث يجعل المخاطب أكثر تفاعلًا، وإيجابية.

ومن تلك القصص التي ذكرها النبي ﷺ ولها عظيم الأثر في ترسيخ الفضائل، ومكارم الأخلاق، حديث أصحاب الغار، فهو من أكثر القصص التي تظهر فضائل الأعمال، ومنزلتها عند المولى -سبحانه وتعالى- ووضعته تحت عنوان:

من بلاغة سرد القصص النبوي

حديث أصحاب الغار أنموذجاً

هادفة من وراء اختياره إلى بيان ما تحمل القصص الواردة في الحديث من جمال السرد، وبلاغة البناء، حيث إن البلاغة النبوية تعد أبلغ الأساليب البشرية أداءً، وأكثرها بلاغةً، وإعجازًا، مع إبراز عنايته ﷺ بترسيخ الأخلاق الفاضلة، والقيم الإنسانية النبيلة، التي تنجي من كرب الدنيا والآخرة.

ويتم عرض البحث في مقدمة توضح أهمية الموضوع، وأهدافه، وسبب اختياره، ومنهجه، وخطة البحث، ومبحثين، أذكر في الأول: المقصود بالسرد القصصي النبوي، وفي الثاني: أوضح ما ورد في حديث أصحاب الغار من أساليب بلاغية وصور بيانية، توضح البلاغة النبوية، مع بيان ما يهدف إليه الحديث من قيم جمالية، وأخلاقية، ينبغي تعلمها، والاقتداء بها، ثم بيان بما ورد في الحديث من خصائص القصة، وسماتها، ثم خاتمة البحث وبها أبرز النتائج، وأهم التوصيات.

الكلمات المفتاحية :(بلاغة السرد – القصص النبوي- حديث أصحاب الغار)

moufidahassan.٧٩@azhar.edu.eg

Summary

One of the approaches taken by the Prophet in his call is to tell the stories of the former, and the story of their news, which is realistic, mentioned by the Prophet [1] ؛

One of those stories mentioned by the Prophet has a great impact on the consolidation of virtues, morality, the talk of the laurel owners, it is one of the most stories that show the virtues of business, and its status at the Lord-Almighty and put it under the title:

From the eloquence of prophetic storytelling

The talk of the laurel owners is a model

His choice is aimed at demonstrating the beauty of the narrative and the eloquence of the narrative, as prophetic rhetoric is the most fulfilling, eloquent and miraculous human method, highlighting his care by establishing virtuous morality and noble human values, which survive the anguish of the world and the hereafter.

The research is presented in an introduction explaining the importance of the subject, its objectives, the reason for its choice, its approach, the research plan, and two researches, I mention in the first: the meaning of prophetic storytelling, and in the second: the clearest of the words of the laurel owners of rhetorical methods and graphic images, The prophetic rhetoric, with a statement of the aesthetic and moral values of the hadith, should be learned, followed, and then stated in the hadith of the characteristics of the story, its features, and then the conclusion of the research with the most prominent results, and the most important recommend - dations .

Keywords: Narrative Eloquence - Prophetic Stories - The Talk of laurel owners(

moufidahassan.٧٩@azhar.edu.eg

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الهادي البشير، الداعي لفضائل الأعمال، وعظيمها، ومكارم الأخلاق وجليلها، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هديه، وسار على نهجه إلى يوم الدين.

وبعد،،،،،،

فن القصة من الفنون الأدبية القديمة التي استخدمتها شعوب كثيرة، فهو من الفنون المشوقة، المحببة للنفس؛ لما يحققه من المتعة النفسية، والعقلية، التي تنشأ من تأمل الشخصيات، وتسلسل الأحداث، والوقائع، بأسلوب ممتع، وجذاب، يشد انتباه المخاطب، ويجذب سمعه؛ لخفته؛ وجمال وقعه؛ ولذلك كان للقصة أثر كبير في تشكيل شخصية الأفراد، ووعيهم، إلى جانب اتساع الفن القصصي، واستيعابه لكثير من الأغراض، والمقامات، بما يحمل من أفكار، وثقافات، وقيم، وأخلاق، وعادات، وتقاليد مختلفة، يتم نقلها بشكل سريع، ومؤثر، لا يتحقق بأي أسلوب آخر.

وقد عني النبي ﷺ بترسيخ الأخلاق الفاضلة، والخلال الكريمة وغرسها في اِلنفوس، بطرق متعددة، وأساليب مختلفة؛ لما لها من منزلة عظيمة، وأثر بيِّن في حياة الفرد، والجماعة، كما كان -عليه السلام- خير قدوة للناس، يعلمهم الأخلاق الفاضلة، بالأفعال قبل الأقوال.

ومن تلك القصص التي ذكرها النبي ﷺ وأراد من خلالها الحث على العمل بفضائل الأعمال، ومكارم الأخلاق، حديث أصحاب الغار، الذي ذكرت فيه ثلاثة من القيم الأخلاقية الفاضلة، التي تحقق سعادة الفرد، وصلاح المجتمع.

هادفة من وراء الدراسة إلقاء الضوء على بلاغة السرد القصصي النبوي، وإبراز عنايته ﷺ باستخدام الأسلوب القصصي كمنهج من مناهج الدعوة، ووسيلة مهمة، ومؤثرة من وسائل التربية؛ للتوجيه لأفضل الأعمال، وأجل الصفات، التي تعكس عظمة الدين، وكماله، وبيان حسن اختياره-عليه السلام- لتلك الطريقة الملائمة للدعوة، إلى جانب التعريف بالسرد، وأسسه، والقصة، وأنواعها، والقصص النبوي، وأثره في التربية، والتوجيه؛ لكونه وسيلة شيقة، وجذابة، تصل الرسالة من خلاله إلى المخاطب بأسلوب مؤثر، وفعَّال.

مع بيان ما يدل عليه الحديث من قيم مثالية، وأخلاق راقية، ينبغي معرفة فضلها، وأهمية التخلق بها، وما ينتج عنها من أثر؛ لصلاح المجتمع، ورقيه، وهو ما يوضح الصورة الصحيحة لتعاليم الإسلام السمحة، وأخلاقياته المُثْلى.

والذي دفعني إلى تلك الدراسة رغبتي الملحة في البحث في الحديث النبوي الشريف، وإبراز ما به من جمال السرد، والبناء، وبلاغة الأسلوب، والأداء، مع التزود بما فيه من فقه، وعلم، يعمل على إصلاح الدنيا، والدين، بما يلزم كل مسلم معرفته، والتزود به؛ لأهمية الحديث النبوي في حياتنا، فهو خير الأقوال، لخير قائل، يحمل الخير، والنفع لكل من تعلَّمه، وعمل به.

أما عن المنهج الذي اتبعته في الدراسة فيتمثل في الاعتماد على المنهج الوصفي القائم على التحليل البلاغي، الذي يكشف ما بالنص من أساليب بلاغية، ودلالات معنوية، وقيم جمالية، وما يحمل من ثراء لغوي، وما يشير إليه من إيحاءات، وأغراض، تبرز أخلاقيات الإسلام، وقيمه.

أما عن خطة الدراسة فتشتمل على:

المقدمة: أعرض فيها أهمية الموضوع، وهدفه، وسبب اختياره، ومنهج الدراسة، والخطة المتبعة في البحث.

ثم مباحث الدراسة وتتمثل في:

المبحث الأول: بلاغة السرد القصصي، ويضم محورين:

المحور الأول: المقصود بالسرد القصصي.

المحور الثاني: القصة النبوية وخصائصها.

المبحث الثاني: من بلاغة النبوة في قصة أصحاب الغار.

ويشتمل على محورين:

المحور الأول: قصة أصحاب الغار من الوجهة البلاغية.

المحور الثاني: الخصائص البلاغية في قصة أصحاب الغار.

ثم الخاتمة وبها أبرز النتائج، وأهم التوصيات، ثم مراجع البحث، وفهارسه.

ومن الله أرجو أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يكون فيه التوفيق والسداد، وأن يحقق به النفع، والخير.

د/ مفيدة محمد حسن

المبحث الأول
بلاغة السرد القصصي
المحور الأول
المقصود بالسرد القصصي

أولًا: المقصود بالسرد:

مفهوم السرد:

ورد السرد في اللغة بمعنى التوالي والتتابع، قال ابن فارس في المقاييس أنه: "يَدُلُّ عَلَى تَوَالِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ يَتَّصِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ"(١)، وقال ابن سيدة أن "السَّرْدُ تَقْدِمَةُ شيءٍ إلى شيءٍ، ويأتي به مُتَّسِقاً بعضُه في إثْرِ بعضٍ مُتتابعا"(٢)، "يُقَال: سَرَدَ فلانٌ الحديثَ يَسرُدُه سَرْداً: إذا تابَعَه"(٣).

مفهوم السرد في الاصطلاح :

المتتبع لمفهوم السرد في الحديث والقراءة يجد أنه "مأخوذ من مفهوم السرد اللغوي وهو التتابع الماضي على سيرة واحدة، ثم أطلق السرد في الأعمال القصصية على كل ما خالف الحوار، ثم لم يلبث أن تطور مفهومه إلى معنى اصطلاحي أعم، وأشمل، حيث أصبح يطلق السرد على النص الحكائي، أو الروائي، أو القصصي برمته، فكأنه الطريقة التي يختارها الراوي،

---

(١) مقاييس اللغة: لابن فارس، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.م مادة (سرد).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم: لابن سيده المرسي، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م مادة (سرد).

(٣) تهذيب اللغة: لأبي منصور الهروي، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م، مادة (سرد).

أو القاص، أو حتى المبدع الشعبي، ليقدم بها الحدث إلى المتلقي، فكان السرد إذن في نسيج الكلام، ولكن في صورة حكي.

وتطور هذا المفهوم حتى أصبحت القصة أقرب الأجناس الأدبية لتمثيل هذه التقنية خاصة في تغيير نظرة كُتَّابِها في التعامل مع اللغة، وزمن الحدث، وفضاء الحكي، فإن كانت السردية في مفهومها التقليدي تعني وظيفة يؤديها السارد، ويقوم بها وفق أنظمة لغوية، ورمزية، فإنها قد اتخذت مفهومًا واسعًا ومغايرًا يتصل بعلاقة السارد بالمسرود له، وبالشخصيات الساردة"(١).

كما قيل في تعريفه أنه: "نقل الأحداث والمواقف من صورتها الواقعية، إلى صورة لغوية، تجعل القارئ يتخيلها وكأنه يراها بالعين"(٢).

فالسرد بهذا المفهوم يخالف الوصف من حيث أنه: انتقال المؤلف من المقدمة إلى الحدث، ثم الحبكة، وبعده الحل، ثم الخاتمة، بترتيب منطقي، ودقيق(٣).

أسس السرد:

كل عمل سردي يستلزم ثلاثة عناصر أساسية هي:

---

(١) مكونات السرد في النص القصصي الجزائري الجديد: عبد القادر بن سالم، ص ٥٦ ، الاتحاد العربي للكتاب، دمشق ٢٠٠١م.

(٢) ينظر: التحرير الأدبي: د. حسين علي محمد حسين (المتوفى: ١٤٣١هـ) ص ٢٩٩، الناشر: مكتبة العبيكان، الطبعة: الخامسة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

(٣) ينظر: كتابة : روان صلاح آخر تحديث ٠٤ :أكتوبر ٢٢:٤٦٢٠٢٠ , ، المرسال : الرابط الإلكتروني: (بتصرف).

https://www.almrsal.com/post/٩٤٨٩٣٤#%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%B٣%D٨%B١%D٨%AF_%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٩%٨٥%D٨%AA%D٨%B٣%D٩%٨٤%D٨%B٣%D٩%٨٤.

١- الراوي ٢- المروى له - والمروي.

كما أن طريقة الرواية يمكن أن تأخذ أشكالا متعددة لا حصر لها، تبعا لموقع الراوي من الأحداث، أو العلاقة بها، أو بالمروي، لأن موضوع الرؤية السردية يقوم أساسا على وضع الراوي في الحكي، وعلى موقعه الذي يتخذه حيال ما يحكي، وموقفه من هذا الحكي"(١).

طرق السرد:

وهناك ثلاثة طرق لسرد أحداث القصة وهي:

١- الطريقة المباشرة:

وهي أكثر الطرق شيوعًا، وفيها يروي المؤلف ما يحدث للآخرين .

٢- طريق السرد الذاتي:

وفيها تروى الأحداث على لسان المتكلم، وهو غالبًا بطل القصة.

٣- طريقة الوثائق:

وفيها يعتمد المؤلف على الخطابات، والمذكرات، واليوميات، ويتخذ منها أدوت لبناء قصة مترابطة الأجزاء(٢).

حيث "تنتقل الحادثة في السرد من صورتها الواقعية إلى صورة لغوية منقوشة على الورق، أي: من خلال اللغة، ولا يكتفي السرد الفني عادة بالأفعال، كما يحدث في كتابة التاريخ، بل نلاحظ دائمًا أنه يستخدم العنصر النفسي الذي يصور به هذه الأفعال"(٣).

---

(١) بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم: لمحمد مشرف خضر ص ١٦٠.رسالة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب

(٢) ينظر: التحرير الأدبي: د. حسين علي محمد حسين ص ٢٩٩.

(٣) الأدب وفنونه – دراسة ونقد: عز الدين إسماعيل (المتوفى: ١٤٢٨هـ)، ١٠٤،الناشر: دار الفكر العربي

عناصر السرد:

وتتمثل عناصر السرد في:

١- الشخصيات: التي هي أساس النص السردي، حيث تنشأ القصة بناء على السلوكيات والأفعال التي تصدر عنهم.

٢- الزمان والمكان: المحدد وهما من أهم العناصر التي تحفز المتلقي على تصور الأحداث، وتخيلها وكأنها واقع يشاهد أحداثه.

٣- الحدث: وهو موضوع القصة الذي ينتج عن أفعال الأشخاص، وسلوكهم، ويكون متسلسلا، ومتتابعا.

٤- الهدف: إذ لابد من وجود هدف للقصة وغرض من سردها.

٥- الأسلوب: أو التركيب، وطريقة عرض النص الذي يتم سرد النص من خلاله، مثل الأسلوب الأدبي الذي يعتمد الأساليب البلاغية الموضحة للنص، أو السياسي، أو الإخباري، ولابد أن يكون بسيطا، واضحا بَيِّن المعنى، والمقصد.

٦- القاص أو السارد: وهو الذي يقوم بعملية السرد، وتوضيح الأفكار، والأحداث، ومن الضروري أن يكون لديه القدرة على التفاعل مع النص، والتأثير في المخاطب؛ لجذبه، وشد انتباهه.

فكل حدث في السرد يجب أن يكون له علاقة بالآخر، مع تطور الوقائع، والأحداث بحيث تبدأ على حال حتى تصل إلى الأفضل، وتكون مختلفة، حتى يتحقق من النص القدرة على التواصل مع الآخرين بطريقة أكثر تأثيرًا، وفاعلية.

وقد يتناول النص السردي فكرة أخلاقية كما هو موضوع الحديث، أو دينية، أو اجتماعية، أو سياسية، أو تاريخية.

خصائص السرد:

من خصائص النص السردي إلى جانب اشتماله على الموضوع، والحبكة، والشخصية، والصراع، والزمان، والمكان، نجد التعبير بالأفعال الماضية الدالة على وقوع الحدث، والحركة مثل: قال، ذهب، قام، وجاء .... الخ. والمضارعة لاستحضاره في ذهن المخاطب، مع اشتماله على الروابط بين الأحداث مثل: قبل ذلك، بعده، ثم ... ، وترتيبها حسب الزمن، مع ذكر ما يدل علي تغير الأحداث وتحولها من خلال ثلاثة مراحل هي: المرحلة الأولية، والمرحلة الطارئة، والمرحلة النهائية(١).

ولأن "الفن القصصي يعتمد في جوهره على السرد"(٢)**، فإن من خصائص الصيغة السردية "صيغة الخطاب، أو صيغة المنقول المباشر التي تهيمن على الحكي، وتطبعه بطابع أمانة النقل، وبهذه الصيغة ترد الوظائف، أو الاحداث المهمة في القضية، عن طريق صيغة الخطاب المسرود"**(٣).

---

(١) ينظر: خصائص_النص_السردي مقالة الرابط الاكتروني :
https://mkaleh.com/%D٨%AE%D٨%B٥%D٨%A٧%D٨%A٦%D٨%B٥_%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٩%٨٦%D٨%B٥_%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%B٣%D٨%B١%D٨%AF%D٩%٨A

(٢) أصول البحث الأدبي ومصادره: المؤلف: مناهج جامعة المدينة العالمية، ماجستير ٨٥ ص، الناشر: جامعة المدينة العالمية.

(٣) بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم: لمحمد مشرف خضر، ص ١٥٨، رسالة دكتوراه في الآداب.

ثانيا: المقصود بالقصة:

مفهوم القصة :

ذكرت كتب اللغة أن "الْقَافُ وَالصَّادُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَتَبُّعِ الشَّيْءِ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: اقْتَصَصْتُ الْأَثَرَ، إِذَا تَتَبَّعْتُهُ"(١).

"وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾(الكهف: ٦٤)،... وَ(الْقِصَّةُ) الْأَمْرُ وَالْحَدِيثُ، وَقَدِ (اقْتَصَّ) الْحَدِيثَ رَوَاهُ عَلَى وَجْهِهِ. وَ (قَصَّ) عَلَيْهِ الْخَبَرَ (قَصَصًا) وَالِاسْمُ أَيْضًا (الْقَصَصُ) بِالْفَتْحِ وُضِعَ مَوْضِعَ الْمَصْدَرِ حَتَّى صَارَ أَغْلَبَ عَلَيْهِ. وَ(الْقِصَصُ) بِالْكَسْرِ جَمْعُ (الْقِصَّةِ) الَّتِي تُكْتَبُ"(٢).

وقد عرفت القصة عند العرب بأنها الأخبار المروية، والأنباء المحكية ، قال تعالى: ﴿ كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً ﴾ (طه:٩٩)، وقوله سبحانه: ﴿ ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (هود:١٠٠).

والعلاقة بين قص الأثر وقص الخبر هو أن العليم بالآثار يتتبع الأثر حتى ينتهي إلى ما يريد، وكذلك القاص يتتبع أحداث القصة كما وقعت ويتتبع ألفاظها ومعانيها، ولا يكون المرء قاصا حقا إلا إذا جاء بأحداث ما يرويه على وجهه الذي وقع عليه.

والعرب تجعل حكاية كل خبر قصة، ولكن أهل العلم، والأدب تعارفوا على أن القصة لون ذو طبيعة خاصة من الأخبار، وعلى ذلك كل قصة خبر، وليس كل خبر قصة.

---

(١) مقاييس اللغة: لابن فارس، (مادة قص).

(٢) مختار الصحاح: للرازي، المحقق: يوسف الشيخ محمد مادة قصص، الناشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

وقد عُرِّفت القصة بمدلولها الشامل بأنها: "قالب تعبيري، يعتمد فيه الكاتب على سرد أحداث معينة، تجري بين شخصية وأخرى، أو شخصيات متعددة، يستند في قصها وسردها على الوصف مع عنصر التشويق، حتى يصل بالقارئ أو السامع إلى نقطة معينة، تتأزم فيها الأحداث وتسمى "العقدة"، ويتطلع المرء معها إلى الحل حتى يأتي في النهاية، ويرى بعض النقاد أن العقدة، والحل، غير لازمين لفن القصة"(١).

فهي فن نثري يقوم بسرد الأحداث، والوقائع بواسطة أشخاص في بيئة معينة، أو زمن معين، بأسلوب أدبي مشوق، بحيث ينتهي إلى غاية ومقصد.

الفرق بين القصة والحديث والخبر:

فرق أبو هلال العسكري بين القصة والحديث، حيث جعل القصة حديث طويل يكون عن السلف، ومنه قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (يوسف:٣)، وجعل القصص صناعة، وسمي الخبر الطويل قصصا؛ لأن بعضه يتبع بعضا حتى يطول.

أما الحديث فيكون عمن سلف، وعمن حضر، ويكون طويلا، وقصيرا، ويجوز أن يقال القصص هو الخبر عن الأمور التي يتلو بعضها بعضا، والحديث يكون عن ذلك، وعن غيره(٢).

أما عن الفرق بين القصة والخبر:

"يقول د. رشاد رشدي في كتابه "فن القصة القصيرة"-: "أن القصة تروي خبرا، ولكن لا يمكن أن نعد كل خبر، أو مجموعة من الأخبار قصة،

---

(١) القصة والرواية: د. عزيزة مريدن ، ص١٢، دار الفكر، دمشق ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م، "بتصرف"، ينظر الكتاب: التحرير الأدبي ، المؤلف: د. حسين علي محمد حسين (المتوفى: ١٤٣١هـ)،٢٩١، الناشر: مكتبة العبيكان، ط: الخامسة ١٤٢٥هـ /٢٠٠٤م.

(٢) معجم الفروق اللغوية: لأبي هلال العسكري،٤٣٠،(بتصرف)، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ

فلأجل أن يصبح الخبر قصة يجب أن تتوافر فيه خصائص معينة، أولها أن يكون له أثر كلي"، وهذا يعني أن مجموعة الأخبار التي تروى ينبغي أن يتصل بعضها مع البعض الآخر؛ ليحدث أثرا كليًا، وتكون حول موضوع واحد، له بداية، ووسط، ونهاية"(١).

أنواع القصة :

القصة نوعان قصة واقعية تنقل أحداث، ووقائع، وشخصيات حقيقية، ويمثلها القصص القرآني، والقصص النبوي، وكذلك التاريخي، والتراثي.

ومنها ما هو خيالي، وهي القصص التي ينسجها المؤلف من وحي خياله، وليس لها أشخاص أو أحداث واقعية، كالقصص الاجتماعي، أو الرومانسي، أو العلمي.

ثالثاً: مفهوم السرد القصصي:

يدل هذا العنوان على كل من القصة: بمعنى المتن الحكائي، والسرد: بمعنى المبنى الحكائي.

والفرق بينهما أن القصة تتعلق بالأحداث والشخصيات، وأما السرد فيتعلق بتنظيم تلك الأحداث في نسق خاص، ودراسة القصة بوصفها متنا حكائيا تعني دراسة مجموع الأحداث المتصلة فيما بينها، وتمثل مادة أولية للحكاية الواقعة من أشخاص(٢).

ومن خلال ذلك يتبين أن السرد القصصي يعتمد على شيئين هما :

الحدث الرئيسي، والطريقة التي يوضح أو ينقل بها الحدث، وهو ما يسمى بطريقة السرد.

---

(١) ينظر: التحرير الأدبي، ص٢٩٠، ٢٩١.

(٢) ينظر: بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم: ص ٣٣

المحور الثاني

القصة النبوية وخصائصها البلاغية

مفهوم القصة النبوية:

مفهوم القصة النبوية لا يخرج عن مفهومها المعروف لدى العرب، وكما جاءت في القرآن الكريم، وهو تتبع الأحداث الماضية، وإبراز جانب العبرة فيها، حيث تتناول أخبار الماضين، وأحداث الأولين، سواء كانوا من الأنبياء، أو من أقوامهم، مع التحديد الزماني والمكاني، ويطلق اسم القصص النبوي على القصص الواقعة للرسول في فترة من فترات حياته، والقصص التمثيلة – التي يسوقها ﷺ في شكل أمثال– وعلى قصص أخرى قصها من عالم الغيب(١).

لذلك تعد القصة النبوية امتدادًا للقصص القرآني؛ لأن الغرض، والمقصد منهما واحد، هو الغرض الدعوي، والمقصد التربوي، وهي أسلوب من أساليب الأداء، ووسيلة من وسائل الدعوة، يستدعيه الغرض، كما هو شأن القصة القرآنية، حيث إن "المقاصد التي يرمي إليها القرآن هي تملي الأسلوب والطريقة، وهي التي من أجلها يسلسل القرآن الأحداث، ويربط بينها برباط من العاطفة، والوجدان"(٢).

وقد انتهج النبي ﷺ في سرد قصصه ذلك المنهج القرآني؛ للتربية والتوجيه، وأخذ العبرة والعظة، إلى جانب توضيح أسس الدعوة، وأهدافها،

---

(١) ينظر: خصائص القصة الإسلامية : مأمون فريزر جرار ، ص١١٣، ط : الأولى ، ١٩٨٨م، دار المنارة للنشر ، جدة ، السعودية

(٢) الفن القصصي في لقرآن الكريم: لمحمد أحمد خلف الله، ص١٢٧، ط٣، ١٩٦٥ ،مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة.

بأسلوب جذاب يحقق إقناع العقل، وإمتاع العاطفة، و" لما كان البيان النبوي امتدادًا، وبيانًا للقرآن الكريم كان لذلك النوع الأدبي فيه نصيب متميز يعمق به النبي ﷺ طائفة من المفاهيم، والقيم التي تعد من المسائل الكبرى في النماذج الكلية من حياة الإنسان"(١).

خصائص القصة النبوية:

تعد القصة النبوية رافدًا من روافد العلوم الإنسانية التي تهدف إلى ترسيخ القيم المثالية، والأخلاق الرفيعة، وصياغتها بأسلوب شيق، وجذاب، تستخفه النفس، ويستمتع به العقل، بعيد عن أساليب الطلب، من الأمر، أو النهي، حيث تصل الرسالة من خلال سرد القصة بطريقة سهلة، ومؤثرة، تحقق الإقناع، وتصل إلى المطلوب، من غير تكلف عناء الطلب المباشر.

ومما يزيد من أهمية القصص النبوي أنه وحي من رب العالمين، جرى على لسان أصدق الخلق أجمعين، وأكملهم خلقًا، فكان نموذجا مثاليا للواقعية، والصدق، والبلاغة الراقية، التي تشع بقوة الإقناع، وعظم التأثير؛ فراويها الصادق الأمين، الذي قال عنه ربه: ﴿ وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى ﴾ (النجم :٣،٤)، حيث "يخبر عن أمور حدثت، وشخصيات وجدت، ليس فيها اختراع للشخصيات، أو تلفيق للحوادث"(٢)، إلى جانب ما يتصف به أسلوبه ﷺ من جذب لانتباه المخاطب، والتأثير في عقله، وقلبه؛ لما يتميز به من قدسية، ووقع طيب على النفس، والشعور يعكس حب الله، ورسوله، كما أنه أسلوب من أساليب تدريب العقول، على الاستنتاج، الذي يربط أسباب الحوادث بنتائجها، فهو يمتاز بالإقناع العقلي، والإمتاع النفسي بموضوع القصة، وهدفها.

---

(١) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية : لكمال عزالدين ، ص ٤٥٩، دار إقرأ.

(٢)خصائص القصة الإسلامية: لجرار ص ٢٢٩.

ومن الخصائص التي تميزت بها القصة النبوية أيضًا، البعد عن الخيال الشارد، والعمق الغامض، والسطحية الفارغة، كما أنها ليست القصة التي وضع لها الغرب عشرات القواعد، والشروط، ولكنها القصة التي تقوم على سلامة الفطرة التي تتسم بالكفاية في تقرير الغرض، والروعة في تسلسل الأحداث، واللباقة في نقل الحوار، وتصوير الأشخاص(١).

فالقصة النبوية بذلك لا يمكن إخضاعها للمقاييس النقدية المعاصرة؛ لأنه من الفساد أن نخضع القصص النبوي الموحى به من الله، والضارب في أعماق الماضي، ونحاول أن نبحث فيه عن سمات قصة اليوم، وعناصرها(٢)؛ ولأنها كمدونة سردية تنتمي إلى السرد العربي الشفاهي الذي كان سائدا في ذلك العصر؛ لأن الحديث الشريف لم يدون إلا بعد وفاة النبيﷺ، حيث "لم تكن الشفاهية نظاما طارئا في الثقافة العربية، بل كانت محضنا نشأت فيه كثير من مكونات تلك الثقافة، في مظاهرها الدينية، والتاريخية، واللغوية، والأدبية"(٣).

كما يعد القصصي النبوي من الفنون الشيقة، التي تزيد من إثراء اللغة، وترسيخ قواعدها، حيث تؤثر بجمال عباراتها، وأساليبها الصحيحة، على تقوية الملكة اللغوية، وتقويم اللسان، فتزيد من قدرته على النطق بفصيح القول، وبليغ الكلام، بما يعمل على نشر اللغة السليمة بين غير المتخصصين، مما يعينهم على ممارسة الأساليب اللغوية الصحيحة، واتقانها.

---

(١) ينظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية : ص ٤٥٩.

(٢) ينظر : مختارات من القصص الصحيح في السنة النبوية : لطلعت محمد عفيفي ص ٢٦، مكتبة الإيمان ط الأولى ١٤٢٣هـ.

(٣) السردية العربية، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي: لعبد الله إبراهيم، ص ٢٤، ط:٢، ٢٠٠٠، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت.

سمات البلاغة النبوية:

يعد الحديث النبوي الشريف امتدادًا للمنهج القرآني، وبلاغته، فهو المصدر الثاني للشريعة لما يحمل من معاني غزيرة، ودلالات، وأفكار متعددة، يستنبط منها مبادئ الدين، وأحكامه، فمنذ عهد النبي ﷺ والعلماء يتدارسون الحديث الشريف، ويستخرجون منه ما تصل إليه عقولهم من مبادئ الدين وأحكامه؛ لغزارته، وكثرة دلالاته، وأهدافه، فهو معين لا ينضب مهما طال الزمان.

والحديث النبوي زاخر بالأساليب البلاغية الرائعة، التي تحمل العديد من المعاني، والدلالات، والأفكار التي تعد مصدرا لكل العلوم اللغوية، والتشريعية، والإنسانية.

كما أن القصص النبوي مليء بالأساليب البلاغية الرائعة، التي تدل على موهبة ربانية فذة وهبها الله –سبحانه وتعالى – لنبيه ﷺ؛ لتكون له وسيلةً، وطريقًا؛ لتبليغ دعوته، ووصولها لكل البشر، مهما اختلفت لهجاتهم، وطرق تعبيرهم، فبلاغته ﷺ، وجمال أساليبه، وروعة منطقه، بيِّن في كل أحاديثه، وأقواله.

١- **ومن أظهر الأساليب البَيِّنة في حديثه ﷺ، والتي تعد سمة من سمات أسلوبه–عليه السلام– عامة، والقصة خاصة، الإيجاز في الألفاظ مع الغزارة في المعاني، والدلالات، حيث تدل الألفاظ القليلة على كثير من المعاني، والأفكار، التي لو فُسِّرت، وفُصِّلت؛ لاستغرقت صحفًا عديدة، ولذلك وصف ﷺ كلامه بجوامع الكلم؛ لما يحمل من بلاغة، وما يدل عليه من إعجاز.**

٢- **التعبير بالألفاظ الجزلة الواضحة المألوفة في لغة العرب، والتي وصفها الرافعي بقوله: "لا ترى فيه لفظًا مضطربًا، ولا لفظة مستدعاه لمعناها،**

أو مستكرهة عليه، ولا كلمة غيرُها أتم منها أداءً للمعنى"[١]، كما أن ألفاظه ﷺ واضحة بَيِّنة يفهمها كل من سمعها رغم اختلاف لهجته[٢].

٣- جاءت الصورة البيانية في حديثه ﷺ موضحةً للمعنى، كاشفةً عن الغرض، وذلك عن طريق التشبيه الموضح، والمجاز الدقيق، والكناية المهذبة، اللطيفة، التي لا تخدش الحياء، ولا تخفي المعنى؛ لما تضفيه الصورة للمعنى من ثراء يزيد من قيمته، وقوة تأثيره.

٤- تمثلت في القصص النبوي الواقعية بكل أشكالها حيث "صورت الإنسان بمختلف جوانبه من الخير، والشر، والقوة، والضعف، والإيمان، والكفر، وغيرها من الصفات، والدوافع النفسية المختلفة، فمن القصص التي صورت جانب الخير، والشر في نفس الإنسان مثلًا قصة الأبرص، والأقرع، والأعمى[٣]، حيث يمثل الأبرص والأقرع جانب الجحود، ونكران الجميل، وكفر النعمة، بعد الفقر، والمرض، أما الأعمى فيمثل جانب الخير، والاعتراف بالفضل، وكذلك القصص التي صورت الطغيان، والجبروت، خاصة لدى ذوي السلطان كقصة السيدة (سارة امرأة إبراهيم –عليه السلام– والملك الجبار)[٤].

وكما صورت القصة النبوية جانب الشر في نفس الإنسان، صورت أيضا جانب الخير فيه، مثل قصة (خشبة المقترض)[٥]، حيث نجد

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : الرافعي ، ص٢٢٣، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٧١م .

(٢) ينظر: عبقرية محمد: للعقاد، ص ٩٣، بيت الياسمين للنشر ، القاهرة ٢٠١٧ م.

(٣) صحيح البخاري: ١٧١/٤، تحقيق :محمد زهير بن ناصر، الناشر : دار طوق النجاة، ط : الاولى، ١٤٢٢هـ.

(٤) السابق :١٤٠/٤.

(٥) السابق :١٢٩/٣.

جوانب الخير البارزة في كل من المقرض، والمقترض، ومدى تمكن الإيمان في نفسيهما[١]، والنماذج في ذلك كثيرة ومتنوعة، تختلف طولا، وقصرًا، ذكرت كتب الحديث كثيرًا منها، ونص علماؤه على تسميتها قصة؛ لما تميزت به من الشكل القصصي الواضح.

٥- **كما سرد النبي ﷺ الكثير من القصص الهادف، وصور ما تشير إليه من معاني، وإيحاءات، وأغراض كقصة الرجل الذي وجد ناقته بالصحراء[٢]، والرجل الذي قتل مائة نفس[٣]، وما أشارت إليه تلك القصص من مشاعر، ودوافع نفسية.**

٦- **إلى جانب ما اتسمت به قصصه ﷺ من عمق الفكرة وغناها، وتناولها جوانب مهمة من قيم الإسلام، ومبادئه، وحياة الإنسان، وسلوكه، وطبائعه، "فكل قصة تحمل فكرة، أو أكثر تعرض قضية، ما أو جانبا من جوانبها، وكل حادثة، أو موقف، أو علاقة في قصة من القصص، لا بد أن تنتهي إلى تقرير فكرة، أو نظرة، أو مضمون ما"[٤]، فالقصص النبوي معني بتصوير نواحي الحياة المختلفة، وما فيها من جوانب مهمة لأخذ العبرة والعظة منها.**

---

(١) ينظر: الأساليب التعليمية في السنة النبوية: أسلوب القصة نموذجًا: د. وفاء بنت عبد العزيز بن حمد، ص٩٦، جامعة الأميرة نورة، الرياض ، مجلة كيرلا، قسم اللغة العربية ، ٢٠١٢م.

(٢) صحيح مسلم: ٢١٠٣/٤، المحقق محمد فؤاد عبد الباقين ، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت

(٣) السابق: ٢١١٨/٤.

(٤) الأساليب التعليمية في السنة النبوية: ص ١٩٥.

أنواع القصة النبوية:

١- **القص التاريخي: الذي يسرد أحداث وقعت في الزمن الماضي، بغرض التربية، والتوجيه، وتأييد أهداف الدعوة، وتحقيق أغراضها، من ذلك النوع قصص الأنبياء والرسل، وقصص اليهود من بني اسرائيل، ومنها قصص لم يذكر النبي ﷺ أسماء أشخاصها، ولا زمانها، ولا مكانها، لأنها ليست مقصد القصة وغرضها، إنما غرضها ما يرد في القصة من قيمة، أو مثل يقتدى به، أو عبرة يوعظ بما حدث فيها، وقصة الدراسة من هذا النوع الذي يهدف إلى ترسيخ القيم الفاضلة، والأعمال الصالحة.**

٢- **القصص الذاتي : الذي يمثله شخص النبي ﷺ، وأحداث حياته قبل البعثة، وبعدها، وهي أحداث حقيقية، تمثل الواقعية، والصدق، مصدرها حياة النبي ﷺ الحافلة بجلائل الأعمال، وقصها على الناس؛ للعظة بها والاقتداء بصاحبها -عليه أفضل الصلاة والسلام- وهذا النوع من القصص أشبه ما يكون بالسيرة الذاتية، التي يسجلها الإنسان عن بعض ما يمر به في حياته، حيث تستهدف أهم التجارب، والقصص، وأكثرها إثارة، وتأثير، بغرض تعميق الإيمان، وزيادته[١].**

٣- **ومن أنواع القصص النبوي أيضا قصص الغيب المستقبلي: وهي القصص التي تتحدث عن أمور غيبية لا سبيل لمعرفتها إلا عن طريق الوحي، وهذا النوع كالنوع الأول حيث يؤيدَ هذان النوعان صدق النبوة، ويعمقا الإيمان بالغيب في نفوس السامعين، وهو معين لا ينضب من التوجيهات، والدروس التربوية النافعة [٢]، التي ينبغي معرفتها والعمل بها.**

---

(١) ينظر : القصص في الحديث النبوي : ٣٣٣، لمحمد بن حسن الزير، ط الثالثة، نشر مكتبة المدني – جدة.

(٢) ينظر : الأساليب التعليمية في السنة النبوية : ص ١٩٨-١٩٩.

المبحث الثاني
من بلاغة النبوة في قصة أصحاب الغار
المحور الأول
قصة أصحاب الغار من الوجهة البلاغية

أمر المولى –سبحانه وتعالى– رسوله ﷺ بتوعية الأمة، وعظتها، وأوحى إليه من الأخبار الغيبية، وقصص السابقين، ما يبلغه للناس؛ لتكون لهم فيه عبرة، وعظة، حيث يدعوهم إلى التفكر، والتأمل في أحداث كل قصة، ومآلها، فيقتدون بأعمال الصالحين منها، ويجتنبون السيئ، قال تعالى، ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٦)، فالقصص النبوي وحي من الله، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ﴾ (يوسف:٣)؛ ولأن أحوال الناس متشابهة، وأفعالهم لا تخلو من عمل صالح يقتدى به، وعمل سيئ يجتنب فعله، فالعبد الصالح يأخذ من أفعال سابقيه العبرة، والعظة، لأنها تمثل الصورة الواقعية، والعملية، التي ترسم الأخلاق في مشاهد حية، وكثير من الناس يرون الحق من الواقع العملي، أكثر مما يعرفونه من التعاليم المجردة، فالمستقيم من البشر يؤثر سلوكه في الناس، أكثر مما تؤثر أقواله فيهم(١).

(١) ينظر: صحيح القصص النبوي : د/ عمر سليمان عبد الله الأشقر ص ١٤،١٥، نشر دار النفائس الاردن، ط الاولى ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

ولذلك اتخذ النبي ﷺ القصة أسلوبا، وطريقا للدعوة يبث من خلالها قيم الإسلام وأخلاقياته، وينشر الوعي الديني، والفهم الصحيح لمبادئ الإسلام، وأحكامه.

فالغرض النبوي من سرد القصة وهدفها هو الدعوة، والتوجيه، وترسيخ المبادئ الخلقية الفاضلة، لاستقامة المجتمع، وسيره على الدرب الصحيح بما يحقق رقيه وتقدمه.

وقد كانت قصة أصحاب الغار من القصص التي أوحى بها المولى – سبحانه وتعالى– لنبيه ﷺ وأمره بسرد أحداثها؛ للاقتداء بأصحابها، والعمل بأعمالهم؛ لعظم ما ورد فيها من أعمال صالحة، تؤكد أهميتها، وعظم منزلتها عند المولى سبحانه.

نص الحديث:

"عَنِ ابْنِ عُمَرَ[1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَاشَوْنَ أَخَذَهُمُ المَطَرُ، فَمَالُوا إِلَى غَارٍ فِي الجَبَلِ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا لِلَّهِ صَالِحَةً، فَادْعُوا اللَّهَ بِهَا، لَعَلَّهُ يَفْرُجُهَا. فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ، كُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ فَحَلَبْتُ بَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ وَلَدِي، وَإِنَّهُ نَاءَ بِيَ الشَّجَرُ، فَمَا أَتَيْتُ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالحِلَابِ فَقُمْتُ عِنْدَ رؤوسهما، أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ

---

(١) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي –رضي الله عنهما– أسلم مع أبيه وهو صغير، .... شهد الخندق وغيرها ، كان شديد الاحتياط لدينه في الفتوى، وكان كثير الحج ، كثير الصدقة، توفي سنة ثلاث وسبعين من الهجرة، (ينظر : أسد الغابة في معرفة الصحابة: لابن الأثير، ٣٤٠/٣ ، تحقيق: محمد ابراهيم البنا محمد أحمد عاشور، ط دار الشعب، مصر، بدون).

أَبْدَأَ بِالصِّبْيَةِ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللَّهُ لَهُمْ فُرْجَةً حَتَّى يَرَوْنَ مِنْهَا السَّمَاءَ، وَقَالَ الثَّانِي: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ أُحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، فَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَسَعَيْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ فَلَقِيتُهَا بِهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ، وَلاَ تَفْتَحِ الخَاتَمَ، فَقُمْتُ عَنْهَا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا، فَفَرَجَ لَهُمْ فُرْجَةً، وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَقَّهُ فَتَرَكَهُ وَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَظْلِمْنِي وَأَعْطِنِي حَقِّي، فَقُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى ذَلِكَ البَقَرِ وَرَاعِيهَا، فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ، وَلاَ تَهْزَأْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أَهْزَأُ بِكَ، فَخُذْ ذَلِكَ البَقَرَ وَرَاعِيَهَا، فَأَخَذَهُ فَانْطَلَقَ بِهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ مَا بَقِيَ. فَفَرَجَ اللَّهُ عَنْهُمْ "(١).

يسرد النبي ﷺ في هذا الحديث قصة ثلاثة من الرجال الصالحين، فاجأهم أثناء سيرهم مطر غزير، دفعهم إلى التماس الحماية داخل غار وجدوه على مقربة منهم، ولكن المفاجأة أن حدث لهم ما لم يتوقعوه، إذ تحول ذلك الغار الذي ظنوا فيه الحماية، والأمان من المطر، إلى أن أصبح لهم محبسًا، إذ سقطت على بابه صخرة عظيمة، لم يستطيعوا لها دفعها، وهنا توقعوا الهلاك إن لم تغيثهم رحمة الله، وتشملهم عنايته، وأصبحوا في حال أشد، وأقسى من الحال التي كانوا عليها، إذ الهلاك محقق، وعندئذ لجأوا إلى المولى –سبحانه– الذي يكشف السوء، ويزيل الكرب، ويجيب دعاء

(١) صحيح البخاري: ٣/٨، تحقيق: محمد زهير بن الناصر، ناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

المطريين، يتضرعون إليه بالدعاء، ويتوسلون بصالح أعمالهم، علَّها تكون سببًا في نجاتهم، وإزاحة الغمة عنهم.

وهنا دعا أولهم المولى –سبحانه وتعالى– وتضرع إليه ببره والديه، وإيثارهما على أبنائه ونفسه، وأما الثاني: فقد توسل بتركه الفاحشة، والإعراض عنها؛ طاعة لله، وخشية، وأما الثالث: فقد توسل بأمانته، وإنمائه مال أجيره، وإعطائه له بنمائه كاملا من غير أن يأخذ على إنمائه أجرا.

وقد كان لتلك الأعمال الصالحة عند المولى –سبحانه وتعالى– من المنزلة، والقبول، ما جعلها سببًا لقبول دعائهم، ورفع درجاتهم، ونجاتهم من هلاك محقق.

مقدمة القصة:

بدأ النبي ﷺ سرد القصة بتهيئة المتلقي لما يرد فيها من أحداث، وسرد بدايتها بقوله:(بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَاشَوْنَ أَخَذَهُمُ المَطَرُ، فَمَالُوا إِلَى غَارٍ فِي الجَبَلِ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا لِلَّهِ صَالِحَةً، فَادْعُوا اللَّهَ بِهَا، لَعَلَّهُ يَفْرُجُهَا).

وهنا يبدو من بداية القصة عناصر السرد وأسسه التي يعتمد عليها والتي تتمثل في كل من شخصيات القصة الذين تدور حولهم أحداثها، وذكر أنهم كانوا ثلاثة نفر، والزمن الذي عاشوا فيه، وهو العهد القديم، حيث ورد أنهم كانوا من بني إسرائيل(١)، إذ لم يكونوا في زمنه ﷺ، ولا عصره الذي عاش فيه، وهو ما يشير إلى نوع القصة أيضًا، وأنها من القصص التاريخي

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري: لابن حجر العسقلاني ، ٥٠٦/٦، دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩هـ.

الذي يسرد أحداثًا ماضية، كما يدل على الهدف من سرد القصة، وهو أخذ العظة من أحداثها، والحث على العمل بمثلها.

أما عن أحداث القصة ووقائعها فتتمثل في نزول المطر الغزير عليهم، وما تبعه من لجوئهم للغار، ثم سقوط الصخرة على باب ذلك الغار الذي ظنوا فيه الحماية، وهو مكان الأحداث، والشاهد عليها، ثم تبينهم عكس ما أملوا من حماية، وأمان، تلك الأحداث وما بها من إثارة وتشويق؛ لمعرفة ما حدث لهم بعد ذلك، لم يشهدها النبي ﷺ، ولم يعاصر أصحابها، ولكنه علمها بوحي من الله –سبحانه وتعالى– أوحاه إليه، وأعلمه إياها؛ لعظة قومه ﷺ، وإرشادهم لأفضل الأعمال التي تنجي من مثل تلك الكرب، ومعرفة زمان القصة ومكانها من الضرورة بمكان إذ بهما تتضح الصورة، ويتبين الغرض المقصود منها؛ لأن "كل حادثة تقع لا بد أن تقع في مكان معين، وزمان بذاته، وهي بذلك ترتبط بظروف وعادات ومبادئ خاصة بالزمان، والمكان اللذين وقعت فيهما، والارتباط بكل ذلك ضروري لحيوية القصة؛ لأنه يمثل البطانة النفسية للقصة"(١).

وهنا أخذ النبي ﷺ يسرد في حديثه ما حدث لشخصيات القصة من ابتلاء، والحوار الذي دار بينهم للنجاة منه، وما أشاروا به على بعضهم البعض، بشكل موضوعي يتسم بالواقعية، والصدق، فقد روى النبي ﷺ أحداث القصة لسامعيه كما وقعت على لسان شخصياتها بصيغة المنقول المباشر، وهي الصيغة التي تهيمن على السرد، وتطبعه بطابع أمانة النقل، وتدل على صدق الراوي فيما يرويه.

---

(١) الأدب وفنونه – دراسة ونقد: عز الدين إسماعيل (المتوفى: ١٤٢٨هـ)، ١٠٨، ١٠٩، الناشر: دار الفكر العربي.

وتبرز في القصة الحبكة، أو المشكلة التي يبحث لها عن حل، وطريق للخروج من تلك الأزمة التي وقعوا فيها، وهنا بدأ النبي ﷺ أولًا بالإخبار عن عدد الشخصيات الواردة في القصة بقوله: (بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ)، و"النَّفر عدَّة رجال من ثَلَاثَة إِلَى عشرَة"(١)، و"الإضافة بيانيَّة"(٢)، وتخصيص العدد بـ (ثلاثة) إجمال تبعه تفصيل، وتوضيح لحال شخصيات القصة الثلاث؛ حيث سرد النبي ﷺ ثلاث قصص مختلفة لتلك الشخصيات، تشير كل قصة منها إلى عظمة الأعمال التي قاموا بها، وأنها كانت قربة لهم عند المولى – سبحانه– تسببت في نجاتهم، وإزاحة الصخرة عن باب الغار الذي احتموا به، كما أن تنوع أعمال هؤلاء، واختلافها في القصة يشير إلى تنوع الأعمال الصالحة، وتعدد صورها، وأنها لا تقتصر على عمل واحد، مع الإيحاء بحاجة المجتمع إلى تلك الأعمال جميعا؛ لاستقامته، وصلاح شأنه كله.

وقد استحضر النبي ﷺ حاكي القصة الحال التي كان عليها شخوصها بصيغة المضارعة في قوله: (يَتَمَاشَوْنَ أَخَذَهُمُ المَطَرُ)، بما يوحي بأن خروجهم كان للنزهة، وربما كان لطلب الرزق، والمجاز في (أخذهم المطر)، استعارة مكنية توضح حبس المطر لهم بسبب شدته وغزارته، وقد تكون تبعية في الفعل (أخذهم)، حيث شبه نزول المطر بغزارة، بالأخذ، بجامع الحبس وعدم إمكان الخروج في كل، والتعبير كناية عن غزارة المطر، فهي كناية عن صفة، وصورة لما أصابهم من حدث أضر بهم، بما دفعهم إلى اللجوء للغار،

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري: لبدر الدين العيني ،٨٥/٢٢، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: للهروي القاري ،٣٠٩٣/٧ ، الناشر: دار الفكر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

والاحتماء به، ولفظ (بينما)[١] يوحي بأن حبس المطر لهم حدث أثناء سيرهم، ولذا جاء الخبر بدون (فاء) فقال (أخذهم)، وهو خبر لها[٢]، والتعبير يدل على الزمن أيضًا، ويشير إلى أن نزول المطر حدث أثناء السير، لم يكن أوله، ولا آخره، وقوله : (فَمَالُوا[٣] إِلَى غَارٍ فِي الجَبَلِ) أي قصدوا[٤] الغار؛ ليحتموا به؛ يقال: "انعرَجَ الْقَوْمُ عن الطَّرِيقِ: مَالُوا عَنْهُ"[٥]، والجار والمجرور "(في الجبل) ، صفة: لغَار. أَي: كَائِن فِيهِ"[٦]، وهو اللفظ الدال على المكان في القصة، وما يوحي ذلك المكان الموحش من خوف، ورهبة.

ثم يبين النبي ﷺ ما حل بهم فجأة بقوله: (فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ)، والانحطاط السقوط، واستعار لفظ الفم لفتحة الغار؛ لكونهما بداية تجويف، كما يوحي بضيق الفجوة، وتقديم الجار والمجرور(على فم غارهم) على الفاعل (صخرة)؛ لتأكيد الحال التي صاروا إليها، وإضافتهم للغار للتخصيص، والتعبير بالإطباق في (فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ)، كناية عن الإغلاق التام لباب الغار، حتى أصبحوا في محبس منه، يقال

---

(١) "قَالَ أَبُو حَيَّان أصل بَين أَن تكون ظرفا للمكان وتتخلل بَين شَيْئَيْنِ أَو مَا فِي تَقْدِير شَيْئَيْنِ أَو أَشْيَاء ثمَّ لحقتها (مَا) أَو الْألف لَزِمتا الظَّرْفِيَّة الزمانية" (همع الهوامع : للسيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)(٢٠٣/٢)، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة التوفيقية – مصر.

(٢) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري: ٢٣:١٢

(٣) (مالوا إِلَيْهِ وأرادوه) المخصص: لابن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ)٣٤٩/٣، المحقق: خليل إبراهم جفال ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

(٤) لسان العرب: مادة (ميل).

(٥) لسان العرب مادة (عرج).

(٦) عمدة القاري شرح صحيح البخاري:١٧٢:١٢.

"أطبقت الشيء عليه وجعلته مطبقا"[1] وهنا حذف الفاعل لسبق ذكره، كما حذف المفعول، والتقدير فأطبقت الصخرة المنفذ، أو باب الغار، كما دلت (الفاء) في كل من (فانحطت، فأطبقت) على التعقيب؛ وبيان سرعة انحطاط الصخرة وانطباقها من غير مهلة.

ثم يحكي النبي ﷺ وسيلتهم للنجاة من ذلك الابتلاء بنقل حوارهم بقوله: "(فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا لِلَّهِ صَالِحَةً، فَادْعُوا اللَّهَ بِهَا لَعَلَّهُ يَفْرُجُهَا)، وهنا تضمن الأمر معنى النصح والتوجيه، حيث نصح بعضهم بعضًا أن يتذكروا أعمالا صالحة عملوها لله –سبحانه وتعالى– يتقربون بها إليه، راجين من قبولها، انفراج الصخرة، والنجاة من الغار، وهنا يسرد النبي ﷺ الحوار الذي دار بينهم وما فيه من إشارة إلى إجماعهم، وتوافقهم على رأي واحد، وقد اشترطوا في تلك الأعمال التي يتوسلون بها إلى المولى –سبحانه– شرطين، الأول: أن تكون موصوفة بالصلاح، والثاني أن تكون خالصة لوجه الله تعالى، لا يشوبها رياء ولا سمعة، يدل على ذلك تقديم لفظ الجلالة في قولهم: (أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا لِلَّهِ صَالِحَةً)، فتقديمه مع حرف الجر يدل على أن ما عملوا من صالح أعمالهم هي خالصة لله وحده دون غيره، وهو قصر إفراد أريد به تخصيص المولى –سبحانه– وحده بتلك الأعمال دون غيره.

وقيل: أن كلا من (صالحة)، و(لله) صفة لـ (أعمالًا)، سواء أخرت إحداهما أو قدمت، وحمل الطيبي الثانية على أنها صفة مُؤَكِّدَة؛ لأن الأعمال التي عملت لا تكون إلا صالحة[1].

---

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح: لابن الملقن (المتوفى: ٨٠٤هـ)، ٢٤٦:٢٨، المحقق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: دار النوادر، دمشق – سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٣٠٩٣:٧ .

وأتبع الأمر الرجاء وفي قولهم: (فَادْعُوَا اللَّهَ بِهَا، لَعَلَّهُ يُفْرُجُهَا)، الأمر بالدعاء بتلك الأعمال الصالحة؛ لتكون شفيعة لهم، ووسيلة لإجابة دعوتهم، ولفظ الرجاء(لعله)؛ لتأكيد رغبتهم، وأملهم في إزالة الصخرة، وانفراجها عنهم.

القصة الأولى:

وبعد ذلك التقديم الذي مهد به النبي ﷺ لسرد القصة، وهيَّأ مخاطبيه؛ لمعرفة أحداثها، واستحث عقولهم لتوقعها، يُفَصِّل ﷺ في تلك القصة ما أجمل ذكره في الجزء السابق، ساردًا عمل كل نفر من الشخصيات الواردة في الحديث، مبتدئًا بذكر قصة أولهم وهو البار بوالديه بقوله:

(فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ، كُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ فَحَلَبْتُ بَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ وَلَدِي، وَإِنَّهُ نَاءَ بِيَ الشَّجَرُ، فَمَا أَتَيْتُ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالحِلاَبِ فَقُمْتُ عِنْدَ رؤوسهما، أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَبْدَأَ بِالصِّبْيَةِ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللَّهُ لَهُمْ فُرْجَةً حَتَّى يَرَوْنَ مِنْهَا السَّمَاءَ).

وفي تلك الفقرة من الحديث يبدأ النبي سرد قصة البار بولديه من هؤلاء الشخوص الثلاثة، مبينا بذلك البدء فضل البر، ومنزلته، وبدأ سرد قصته بنقل دعائه بقوله: (اللَّهُمَّ)[1] والتي ذكر ابن حجر أنها على بابها في

---

(١) ذكر العيني في شرحه أن لفظ "(اللَّهُمَّ)، يستعمل في كلام العرب على ثلاثة انحاء أحدها :للنداء المحض وهو ظاهر. والثَّاني: للإيذان بندرة المستثنى كقولك بعد كلام: أللهم، إلاَّ إذا كان كذا. والثَّالِث: ليدل على تيقّن الْمُجيب فِي الْجَواب المقترن هُوَ بِهِ، كَقَوْلِك لمن قَالَ: أَزِيد قَائِم أللهم نعم أَو أللهم لا." عمدة القاري شرح صحيح البخاري: للعيني :٢٤/١٢.

النداء[1]، حيث ينادي المولى –سبحانه– متضرعا، ومخبرا بما تذكر من عمل صالح يظن قبوله عنده–سبحانه–، مؤكدا إياه بـ(إنَّ) المضافة لضمير الشأن؛ لقوة المعنى في نفسه، ووصفه والديه بأنهما (شيخان كبيران)، وأبنائه بأنهم (صبية صغارٌ)، كنايتان تشيران إلى ضعفهما، حاجتهما إلى الرعاية، والعناية، والإشفاق، مع ما بين الجملتين من مقابلة ثلاثة بثلاثة، فوالديه شيخان كبيران، وأبنائه صبية صغار، وكل منهما في أمس الحاجة إلى العناية، والرفق، ولكن على الرغم من صغر أبنائه، وضعفهم، وشدة حاجتهم إلى الطعام، آثر والديه، وأبى أن يبدأ إلا بهما، وفي ذلك ما فيه من فرط البر، وزيادة الإحسان.

كما يحكي شأنه، وما كان يفعل بقوله :(كُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ) أي أنفق عليهم، وهنا ضمن الرعي معنى الإنفاق، فعدي بـ(على)، على الاستعارة التبعية في الفعل حيث شبه إنفاقه على والديه، ورعايته لهما بالرعي، بجامع التعهد بالعناية والرعاية في كل، أو من باب حذف المفعول، والفعل، والتقدير: (كنت أرعى الغنم، وأنفق المال عليهم)، وعلى كلا الحالين ففي الجملة إيجاز يدل على المقصود بأبلغ عبارة، وأوجز لفظ، كما ضمن قوله: (فَإِذَا رُحْتُ[2] عَلَيْهِمْ) معنى رَدَدْتُ، يريد فإذا رددت الماشية من المرعى[1] إلى مبيتها، وأقبلت عليهما، وهنا استعار حرف الجر (على) الدال على الاستعلاء[2]،

---

(١) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: للعسقلاني ٥٠٧/٦.

(٢) "الرَّوَاحُ مِنْ لَدُنْ زوالِ الشمسِ إِلَى اللَّيْل وَقد رُحْنَا رَواحاً وتَرَوَّحْنَا سِرْنَا بالعَشِيِّ أَو عَمَلْنَا بِهِ... وأَرَحْتُ الإبلَ رَدَدْتُها بالعشِيِّ "(المخصص: ٣٩٥/٢،٣٩٦).

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح٧:٣٠٩٤

(٢) اللمع في العربية: لابن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، ص ٧٤، المحقق: فائز فارس، الناشر: دار الكتب الثقافية – الكويت.

والمضاف إلى ضمير والديه؛ للدلالة على معنى حرف (إلى) الدال على انتهاء الغاية[١]، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية في الحرف.

وعطف (فَحَلَبْتُ) على الرواح بـ(الفاء)؛ لدلالتها على السرعة، وعدم التراخي، وقوله: (بَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا) جواب إِذَا، والتعبير بالماضي (بدأت) لتحقق تلك العادة، وثبوتها، وبالمضارع (أسقيهما)؛ لتجدد الفعل وتكراره، وهو إما حال له، أو استئناف[٢] يبين علة البدء بهما.

كما جاء بجملة: (قَبْلَ وَلَدِي)؛ لتأكيد تقديمهما على ولديه، وكان يمكنه الاكتفاء بقوله، (بَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ)؛ لمعرفة ذلك، ولكن غرضه هو التأكيد على البدء بهما، مع ما بين لفظي (وَالِدَيَّ- وَلَدَي) من جناس ناقص، أحدث تلاؤما لفظيا، وكذلك معنويا بين الجملتين.

ويستكمل سرد قصته عن طريق الخبر المؤكد بكل من (إنَّ، وقد، والفعل الماضي) بقوله:" (وَإِنَّهُ قَدْ نَأَى بِي الشَّجَرُ)،"أي: تباعد عن مكاننا الشجر التي ترعاها مواشينا"[٣] ، بما تسبب في تأخري عنهما، (فَمَا أَتَيْتُ حَتَّى أَمْسَيْتُ)، خبر ينفي عودته حتى المساء، بسبب بُعد المرعى، بما نتج عنه قوله: (فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا)، بسبب ضعفهما، أو من كثرة الإبطاء عليهما[١]، وهنا حدد زمن العودة، وما ترتب علي تأخر موعدها من نتيجة، هي غلبة النوم على والديه بدون إطعامهما.

---

(١) الأصول في النحو: لأبي بكر السراج، ٤١١/١، المحقق: عبد الحسين الفتلي، الناشر: مؤسسة الرسالة، لبنان – بيروت.

(٢) ينظر مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح:٧:٣٠٩٤.

(٣) التوضيح لشرح الجامع الصحيح: لابن الملقن ، ٢٨:٢٤٦.

(١) ينظر مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح٧:٣٠٩٤

وهنا عطف قوله: (فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ) بالفاء للتعقيب، والتعبير بالماضي للتحقق، وسرد الحدث، وأتى بـ(الكاف)؛ لتشبيه فعله في ذلك اليوم بعد عودته، بما كان يفعل كل يوم، والمراد (بالحلاب) في قوله: (فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ) الإناء الذي يحلب فيه، وقد يكون المراد هنا اللبن المحلوب[1]، على طريق المجاز المرسل، والعلاقة الحالية، حيث ذكر المحل وأريد الحال فيه، والمعنى (فجئت إليهما بالحلاب؛ لأسقيهما)، وذكر أن "الْأَظْهَرُ أَنَّهُ أَتَى بِالْحِلَابِ الَّذِي فِيهِ الْمَحْلُوبُ اسْتِعْجَالًا"[2]، بسبب تأخره عليهما، مع ما بين ألفاظ (فحلبت – أحلب – الحلاب)، من جناس اشتقاقي أحدث تلاؤما، واتساقا في الجملة.

وفصل بين جملتي: (فَقُمْتُ عِنْدَ رُؤُوسِهِمَا، أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا)؛ للاستئناف البياني، والتقدير: ولِمَ ذلك القيام؟ الجواب: (أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَبْدَأَ بِالصِّبْيَةِ قَبْلَهُمَا)، على الرغم من استيقاظ أبنائه، وشعورهم الشديد بالجوع، وعطفت الجملة الثانية بالواو للتوسط بين الكمالين؛ لاتفاقهما في الخبرية لفظا، ومعنى.

ويستطرد في الحكي مصورًا حال صبيته بقوله: (وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ[1] عِنْدَ قَدَمَيَّ) "أي يَضِجُّونَ وَيَصِيحُونَ مِنَ الْجُوعِ"[2]، "وَهُوَ من بَاب

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري:٢٤/١٢

(٢) مرقاة المفاتيح : ٣٠٩٤:٧.

(١) الضَّغْو: مصدر ضغا الذئبُ يضغو ضَغْواً وضُغاءً، وَهُوَ صياحه وتضوّره إِذا جَاع، وَالِاسْم الضُّغاء"، (جمهرة اللغة لابن دريد، (باب الضاد واللغين مادة (ضغو))، و"الضُّغاءُ: صوْتُ الذَّليل إِذا شُقَّ عَلَيْهِ، ..... وَيُقَال: رأيتُ صِبْياناً يَتضاغَوْنَ: أَي: يَتَباكَوْنَ"(تهذيب اللغة: لابي منصور الهروي، (باب الغين، والضاد)، مادة (ضغو)

(٢) مرقاة المفاتيح : ٣٠٩٤:٧ .

التفاعل"[١]، كناية عن شدة ما هم عليه من جوع، وكونهم عند قدميه ظرف مكان، يبين حالهم، ويؤكد شعور الجوع لديهم، وهنا يبرز دور المكان في الدلالة على لشعور بالجوع الشديد.

وهنا يحكي حاله، وحالهم جميعًا بقوله: (فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي، وَدَأْبَهُمْ، حَتَّى طَلَعَ الفَجْرُ)، "أَيْ عَادَتِي وَعَادَتُهُمْ، وَالضَّمِيرُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالصِّبْيَةِ[٢]، و"الدأب الْعَادة، والشأن، وَقَالَ الْفراء: أَصله من دأبت، إلاَّ أَن الْعَرَب حولت مَعْنَاهُ إِلَى الشَّأْن"[٣]، أي لم يزل ذلك شأني وشأنهم، كناية عن ملازمة تلك الحال لهم حتى طلوع الفجر، وهنا يبرز أيضًا دور الزمن الذي يصور ما هم عليه من عناء طوال الليل، وبين لفظي (دَأْبِي، وَدَأْبَهُمْ) جناس اشتقاقي يؤكد تلك الملازمة، والحال التي باتوا عليها، والنفي بـ (لم يزل) يشير إلى استمرارهم على تلك الحال حتى الفجر، وهي كناية عن شدة البر، وعظم الإحسان، فهو يأبى أن يبدأ بسقيا صبيته قبل والديه؛ "تَقْدِيمًا لِإِحْسَانِ الْوَالِدَيْنِ عَلَى الْمَوْلُودِينَ؛ لِتَعَارُضِ صِغَرِهِمْ بِكِبَرِهِمَا"[١].

كما توحي القصة بما لاقاه ذاك الرجل في يومه هذا من مشقة بدنية، وآلام نفسية، فقد قضى نهاره في عمل شاق وهو يرعى أغنامه، وزاده مشقة بعده في المسير، ثم زاد إجهادًا، ورهقا بسبب عدم تناول عشاءه ذلك اليوم، إلى جانب المعاناة النفسية بسبب نوم والديه من غير طعام، وصياح أبنائه جوعا، وما في ذلك من معاناة، وآلام نفسية لا يتحملها أب يرى جوع أبنائه، وصياحهم، وعدم إمكانه إطعامهم، قبل والديه حسب عادته معهم.

---

(١) عمدة القاري: ٢٤:١٢.

(٢) مرقاة المفاتيح: ٣٠٩٤:٧.

(٣) عمدة القاري: ٢٤:١٢.

(١) مرقاة المفاتيح: ٣٠٩٤:٧

تلك صورة فريدة، وعمل صالح لا يصنعه إلا الإيمان العميق بالله، والإخلاص له؛ لأن المبادئ البشرية، وتعاليمها، لا ترقى بالإنسان ليبلغ هذا المبلغ العظيم من قوة الاحتمال، ونبل العواطف، وتقدير الآباء، وتوقيرهم(١).

ولعل ذلك هو سر قبول العمل وإجابة الدعاء؛ لأن فعله هذا ليس بواجب، إذ كان يكفيه الاحتفاظ بما يكفي حاجة والديه من اللبن حتى استيقاظهم، ولكنه آثر انتظارهما، والبدء بهما قبل أبنائه كعادته، فألزم بذلك العمل نفسه وكلفها ما ليس بلازم، وهو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، زيادة في البر، وفرط في الإحسان، وهو ما جعل عمله يصل إلى درجة القبول، والإكرام.

ولهذا قال: (فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ)، أي طلبا لرضاك يا الله، نصب"(ابْتِغَاء) على أَنه مفعول لَهُ، أَي: لأجل ابْتِغَاء وَجهك"(٢) حذفت أداة النداء والمنادى وهو لفظ الجلالة؛ لأن المقام مقام تضرع وتوسل له –سبحانه–، والمقصود هو أني لم أفعل ذلك إلا لأجل مرضاتك، فهو عمل خالص لوجهك الكريم.

والمقصود بالوجه هنا ذات المولى –سبحانه وتعالى– على طريق المجاز المرسل، والعلاقة الجزئية.

والشرط بـ "قَوْله: (إِن كنت تعلم)، على خلاف مُقْتَضى الظَّاهِر، لأَنهم كَانُوا جازمين بِأَن الله عَالم بذلك فَلَا مجَال لحرف الشَّك فِيهِ، وَأجِيب: بِأَنَّهُم لم يَكُونُوا عَالمين بِأَن لأعمالهم اعْتِبَارا عِنْد الله، وَلَا جازمين، فَقَالُوا: إِن كنت تعلم لَهَا اعْتِبَارا ففرِّج عَنَّا"(١).

---

(١) ينظر: صحيح القصص النبوي: ص٢٠٩ –٢١٠.

(٢) عمدة القاري : ٢٤:١٢

(١) السابق : ٥٢/١٦.

ورأى أهل العلم أن هؤلاء النفر الثلاثة قد توسلوا إلى المولى –سبحانه وتعالى– بما رأوا من توفيق حالفهم؛ لأداء تلك الأعمال التي يرجون قبولها عنده –سبحانه–؛ لاقترانها بالإخلاص لوجهه الكريم "فَكَأَنَّمَا قَالُوا: كَمَا أَنْعَمْتَ عَلَيْنَا بِمَعْرُوفِكَ أَوَّلًا فَأَتِمَّ عَلَيْنَا بِفَضْلِكَ ثَانِيًا، فَإِنَّا لَا نَسْتَغْنِي عَنْ كَرَمِكَ أَبَدًا[1].

والتعبير كناية عن إخلاص العمل لله وحده، وأن ذلك الإخلاص هو سبب قبوله، ونجاتهم بانفراج جزء من الصخرة عنهم، وقد ذكر النبي ﷺ أهمية إخلاص العمل لله بقوله فيما يرويه عن ربه: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)[2]، فالإخلاص هو كل عمل خلص لله وحده، ولا يكون لغيره نصيب منه، ولذلك كان إخلاصه في ذلك العمل، وخلوصه لله، هو سبب قبوله، وإجابة دعائه، وإزاحة جزء من الصخرة عنه، وعن صحبه.

وأتى بالدعاء في صيغة الأمر في قوله: (فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً، نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ)؛ للدلالة على شدة حاجتهم إلى الإجابة، والقبول، وتقديم كل من الجار والمجرور (لنا ، ومنها)؛ للتخصيص، وفي التعبير التفات من الخطاب إلى التكلم؛ لبيان الطلب وهو انفراج الصخرة، والغرض منه وهو رؤية السماء، ورؤيتها كناية عن قبول العمل، واستجابة الدعاء، وزوال الشدة.

وهنا ساق لهم المولى–سبحانه– بقدرته التي لا توصف، ما يدل على قبول العمل، واستجابة الدعاء بقوله: (فَفَرَجَ اللَّهُ لَهُمْ فُرْجَةً[1] حَتَّى يَرَوْنَ

---

(١) مرقاة المفاتيح: ٧:٣٠٩٦.

(٢) رواه مسلم : (٥٣٠٠).

(١) و"(الفُرْجَة)، بِضَم الْفَاء وَفتحهَا، والفرجة فِي الْحَائِط كالشق، والفرجة انفراج الكروب، وَقَالَ النّحاس: الفرجة بِالْفَتْح فِي الْأَمر، والفرجة بِالضَّمِّ فِيمَا يُرى من الْحَائِط وَنَحْوه، قلت: الفرجة هُنَا بِالضَّمِّ". (عمدة القاري: ١:٢٤).

مِنْهَا السَّمَاءَ)، كما دلت الفاء على سرعة الإجابة، وهنا ذكر الفاعل وهو لفظ الجلالة مع العلم به؛ لتأكيد إجابة دعائهم، كما قدم الجار والمجرور في كل من (لهم، ومنها)؛ لاختصاصهم بتلك (الفرجة)، وعبر عنها بزنة (فعلة)؛ للدلالة على انفراج جزء منها، أَي" فرج بِقدر مَا دَعَاهُ، وَهِي الَّتِي بهَا ترى السَّمَاء"(١)، وانفراجها بشرى بقبول العمل، ونصب المضارع هنا بعد حتى لمجيئها بمعنى كي(٢)، والتعبير بالمضارع (يَرَوْنَ)؛ لـ "حِكَايَة حَالٍ مَاضِيَةٍ" (٣) وتكرار لفظ (السماء) لتأكيد رؤيتهم إياها، والتبشير بالفرج .

وفي الحديث إشارة إلى أن من دعا الله–سبحانه– بنية صادقة، وتوسل إليه بصالح عمله، بشرط أن يكون خالصا لوجهه، لا رياء فيه ولا سمعة، كان ذلك سببا في نجاته من كُرَب الدنيا، والآخرة.

ومن خلال سرد النبي ﷺ لتلك القصة يتبين فضل بر الوالدين، وعظم أجره، ومنزلته، عند المولى –سبحانه وتعالى–، كما يؤكد على وجوب إطعامهما، والقيام بجميع شؤونهما، خاصة حال كبرهما، وفضل إيثارهما على النفس والأولاد، وتقديمهما على سائر الأهل والأقارب، وأن ذلك من أجلّ الأعمال التي حث عليها الإسلام، وهو ليس عملا سهلا يسيرا، بل هو عمل يحتاج إلى صبر وقوة تحمل، لما فيه من مجاهدة للنفس، وحرص على البر، والطاعة؛ ولذلك كان من أعظم الأعمال الصالحة التي يتقرب بها العبد إلى المولى –سبحانه– وتُفرَّج بها الكرب، وتُزَال بها الهموم، والظلمات.

---

(١) عمدة القاري: ٢٤:١٢.

(٢) حيث "ذهب الكوفيون إلى أن حتى تكون حرف نصب ينصب الفعل من غير تقدير أن... وذهب البصريون إلى أنها حرف جر، والفعل بعدها منصوب بتقدير "أن"، (الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: للأنباري (المتوفى: ٥٧٧هـ)، ٤٨٩/٢، الناشر: المكتبة العصرية، الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ– ٢٠٠٣م).

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح٧:٣٠٩٤.

القصة الثانية:

ثم يسرد النبي ﷺ قصة الشخصية الثانية، ويحكي أحداثها بقوله: (وَقَالَ الثَّانِي: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ أُحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، فَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَسَعَيْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ فَلَقِيتُهَا بِهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ، وَلاَ تَفْتَحِ الخَاتَمَ، فَقُمْتُ عَنْهَا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا، فَفَرَجَ لَهُمْ فُرْجَةً).

وفي هذه الفقرة يفصل النبي ﷺ القصة الثانية ويبين فضل البعد عن المحرمات، ومنزلته عند المولى –سبحانه– عن طريق سرد قصة الشخصية الثانية في الحديث، والذي بدأ حكي قصته بالتوسل إلى الله بقوله: (اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ أُحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ)، والضمير هنا للشأن، والتعبير تشبيه حال بحال، حيث شبه حال نفسه، وقد أحب ابنة عمه حبًا شديدًا، بأشد المحبات التي تكون بين الرجال والنساء، مستخدما في ذلك (كاف) التشبيه، التي صورت شدة وجده، وعظم حبه لتلك المرأة، وهو ما أكدته صيغة التفضيل (أشد) أي: أحبها حبا شديدًا، "قَالَ الطِّيبِيُّ: صِفَةُ مَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، وَ (مَا) مَصْدَرِيَّةٌ أَيْ: أُحِبُّهَا حُبًّا مِثْلَ أَشَدِّ حُبِّ الرِّجَالِ النِّسَاءَ، أَوْ حَالًا أَيْ: أُحِبُّهَا مُشَابِهًا حُبِّي أَشَدَّ حُبِّ الرِّجَالِ النِّسَاءَ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ (النساء: ٧٧)"[(١)].

واستعار في قوله: (فَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ)، لفظ الطلب لمعنى الإرسال، والأصل: أرسلت إليها طالبا منها نفسها، على الاستعارة التبعية في الفعل.

---

(١) مرقاة المفاتيح : ٣٠٩٥/٧.

وعبر بالماضي (فَأَبَتْ) بعد فاء التعقيب؛ لتحقق الفعل وثبوته، وبلفظ (آتيها) لحكاية الحال الماضية.

ولذا جاء قوله: (فَسَعَيْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَلَقِيتُهَا بها)، مسبب عن طلبها، فـ(حتى) للغاية(١)، وتكرار (فاء) التعقيب يشير إلى لهفته، وشدة حرصه على لقائها، وهو ما صوره بقوله: (فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا)،كناية عن تمكنه من معاشرتها معاشرة الأزواج.

وفي تلك الحال نادته بـ (يا) الموضوعة لنداء للبعيد حيث (قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ) لبعده عن تقوى الله، وخشيته، إلى جانب بعده عن رضاها، وقبول ما يريد فعله، مع تحقيره، أما لفظ (عبد الله) فقد يكون اسمه، وقد يكون صفته، أرادت من خلالها تذكيره بعقاب الله –سبحانه–؛ ليرتدع، ولا يقدم على فعل هذا، ولذا أتت بصيغة الأمر بقولها (اتق الله)، بقصد زجره وترهيبه من عقابه، والمراد خِفْ الله، وحذف من الجملة فاعل (قالت)؛ اختصارا للعلم به، والمعنى: قالت المرأة لا تأتي ما حرم الله، ولا تستحله إلا بحقه.

ولهذا عطفت على الأمر النهي بقولها: (وَلَا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ) للزجر أيضًا، والتعبير كناية عن موصوف، وهي بكارتها، وفيه دليل على عُذْرِيَّتها، ونتج عن كل من الأمر والنهي الكناية عن صفة في قوله: (فَقُمْتُ عَنْهَا) كناية عن تركها، ورجوعه عَمَّا هَمَّ بفعله.

وهنا يظهر الأثر الطيب للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، حيث نهت تلك المرأة ابن عمها عما أراد فعله من الفاحشة بقولها: «يَا عَبْدَ اللهِ اتَّقِ اللهَ(١)، فاستجاب لها خوفا من الله وخشية.

---

(١) اللمع في العربية: لابن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، ص ٧٦.

(١) ينظر: دروس وعبر من صحيح القصص النبوي: لشحاتة محمد صقر،٢٧، الناشر: مكتبة دار العلوم، البحيرة (مصر).

وتكرار لفظ (اللَّهُمَّ) في تلك القصة دون القصتين الأخريين، لزيادة التضرع والخضوع لله –سبحانه تعالى–؛ لأن ذلك المقام من أصعب المقامات، وأشقها على النفس؛ لأنه ردع لهواها، وإحجام لرغبتها؛ خوفا من الله تعالى، وخشية لمقامه قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى – فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النازعات: ٤٠ – ٤١)، وذلك؛ لأن من ترك الزنا خوفا من الله تعالى مع القدرة عليه، وتيسر أسبابه، لا سِيَّمَا عند صدق الشهوة حاز درجة الصِّدِّيقِين[١]، فمخافة الله من أعظم العبادات التي تقرب من محبته، وتقي من الفواحش، وتصرف النقم، وقد عُدَّ ذلك العمل أعظم الأعمال الثلاثة، لما فيه من مجاهدة النفس، وكبح جماحها، في أكثر فتراتها ضعفا.

والشرط بقوله: (فَإِنْ كُنْتَ) "قَالَ الطِّيبِيُّ: عَطْفٌ عَلَى مُقَدَّرٍ أَيِ: اللَّهُمَّ فَعَلْتُ ذَلِكَ، فَإِنْ كُنْتَ (تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ)، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ (اللَّهُمَّ) مُقْحَمَةً بَيْنَ الْمَعْطُوفِ، وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ؛ لِتَأْكِيدِ الِابْتِهَالِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا يُقَدَّرُ مَعْطُوفٌ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْوَجْهُ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ الْقَرِينَةُ السَّابِقَةُ وَاللَّاحِقَةُ"[١].

والإشارة بـ(ذَلِكَ) لما ذكر من الإحجام، ومنع نفسه عنها بعد القدرة عليها، وقوله: (ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ)، أي: لأجل مرضاتك والأمر بقوله: (فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً مِنْهَا)، أراد به التضرع والدعاء، وتقديم الجار والمجرور (لنا)؛ لتخصيصهم بتلك الفرجة، كما دلت (مِنْ) أيضًا على انفراج جزء آخر من الصخرة؛ جزاء خشيته–سبحانه–، وخوف عقابه.

---

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح: ٣٠٩٥/٧.

(١) السابق : الصفحة نفسها.

واقتران جواب (إن) في قوله: (فَفَرَجَ لَهُمْ فُرْجَةً)، (بالفاء)؛ لدلالتها على سرعة الاستجابة، وانفراج جزء آخر عنهم، كما حذف من الجملة اللفظ الدال على الفاعل لكونه –جلَّ شأنه– معلوما.

والقصة تشير إلى فضل العفة، والإحجام عما حرم الله من الفواحش، خاصة بعد تيسر أسبابها، والقدرة عليها[1]، وأنه من أعظم، وأجل الأعمال عند المولى –سبحانه–، وقد بين النبي ﷺ أيضًا مكانة من أحجم عن الفاحشة بعد تيسر أسبابها، بحديثه الوارد في الصحيحين بقوله: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ،–وذكر منهم–.....رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ إِلَى نَفْسِهَا، قَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ"[2]، فمن أحجم عن الفاحشة مخافة الله–تعالى– كان من هؤلاء الذين يظلهم الله –سبحانه– بظله يوم القيامة، و هذا الرجل أحجم عن تلك المرأة التي يحبها أشد الحب، وتركها بعد أن تمكن منها، خوفا من الله وخشية له؛ فارتفعت منزلته، وعلا قدره، وأصبح من أهل الكرامة، والإكرام، فالخوف من الله سبحانه، ومراقبته في السر، والعلن، وترك ما حرم من أسباب محبته، ورضاه، وتفريج الكرب في الدنيا والآخرة؛ لأن من عرف الله تعالى– في الرخاء عرفه الله –سبحانه– في الشدة.

كما تشير القصة إلى "قدرة الإنسان على الانتصار على ضعفه، وأن هذا الهبوط إنما هو تردٍّ يحدث في غيبة الإيمان ، فما يلبث أن يفيق العبد وينتصر على شهواته ونزواته"[1].

---

(١) ينظر: عمدة القاري: ٢٦:١٢.

(٢) صحيح البخاري: ١٦٣/٨.

(١) الأساليب التعليمية في السنة النبوية: ص ١٩٦.

وتؤكد القصة على قبول المولى –سبحانه– التوبة ممن عزم عليها، وأخلص النية له –سبحانه–، فمن هم بسيئة، فتركها ابتغاء وجه الله، كتب له أجرها، قال تعالى: ﴿ وَلِمن خَافَ مقَام ربه جنتان ﴾ (الرَّحْمَن: ٦٤)(١).

كما تدل على " أثر التقوى في تخليص العبد من كربه وبلائه؛ قال – عز وجل –:﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق:٢)"(٢).

القصة الثالثة:

ثم يسرد النبي ﷺ قصة الرجل الثالث، والأخير، والذي يحكي قصته بقوله: (وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَقَّهُ فَتَرَكَهُ وَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَظْلِمْنِي وَأَعْطِنِي حَقِّي، فَقُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى ذَلِكَ البَقَرِ وَرَاعِيهَا، فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَهْزَأْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أَهْزَأُ بِكَ، فَخُذْ ذَلِكَ البَقَرَ وَرَاعِيَهَا، فَأَخَذَهُ فَانْطَلَقَ بِهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ مَا بَقِيَ. فَفَرَجَ اللَّهُ عَنْهُمْ "(١).

وفي تلك الفقرة يواصل النبي ﷺ تفصيل ما أجمل في أول الحديث، ويحكي قصة النفر الثالث، ويبين من خلالها منزلة حفظ الأمانة ومكانة الحافظ لها، بقوله: (وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ)، حيث بدأ حكي القصة بنقل دعائه، وتوسله إلى المولى –سبحانه–بما رآه من صالح عمله، راجيا انفراج ما بقي من الصخرة، وانكشافها عنهم، وأتبع دعاءه

---

(١) ينظر: عمدة القاري: ٢٦:١٢.

(٢) دروس وعبر من صحيح القصص النبوي: ٢٧.

(١) صحيح البخاري :٣:٨.

الإخبار عن قصته مع أجيره، مؤكدا خبره بـ(إنَّ) المضافة إلى ضميره، والفعل الماضي الدال على التحقق والثبوت، مع تنكير لفظ الأجير؛ لإفراده؛ لأن المقام لا يستدعي تعريفه، وتحديد شخصه، فهو شخص ما استأجره للعمل بأجر معلوم، ومحدد؛ لأن الإجارة المجهولة غير صحيحة(١)، حدده بقوله: (فَرَقِ(٢) أَرُزٍّ)(٣)،وعبر عن تلك الحال بصيغة الحقيقة؛ لتقرير الحدث وإثباته.

ويسرد ما حدث من قصة ذلك الأجير بقوله: (فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَقَّهُ فَتَرَكَهُ وَرَغِبَ عَنْهُ)، وفي التعبير مزاوجة بين الأسلوب الخبري الذي أرد به تقرير المعنى، والإنشائي الذي دل على التماس الأجير حقه، كما دلت الفاء على التعقيب وعدم التوان في كل من بيان ما له من أجر، وكذا تركه وعدم رضاه بما حدده له.

ثم يسرد ذلك الرجل الصالح ما فعله بذلك الأجر الذي تركه الأجير مستخدما الأسلوب الخبري بقوله: (فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيَهَا)، وأتى بكلمة (بقرًا) نكرة؛ لدلالتها على الكثرة، وعطف عليها كلمة (وراعيها) المضاف لضميرها؛ لاختصاص ذلك الراعي برعيها، والدلالة على أنه جزء من الأجر الذي تركه.

ثم يحكي مجيئه إليه، وطلب أجره مرة أخرى بقوله: (فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَظْلِمْنِي وَأَعْطِنِي حَقِّي)، وهنا تآزر كل من الخبر والإنشاء؛ لأداء المعنى، حيث أتى بكل من فعلي الأمر (اتق، وأعطني)، اللَّذان قصد بهما حثه على إعطائه حقه، وما يوحي به لفظ (حقي) من زجر وترهيب عن

---

(١) مرقاة المفاتيح : ٣٠٩٦:٧.

(٢) " الْفرق، بِفَتْح الرَّاء وسكونها: مكيال يسع ثَلَاثَة آصَع".(عمدة القاري: ٢٥:١٢، ١٧٢).

(٣) " الْأرز، بِفَتْح الْهمزَة وَضم الرَّاء وَتَشْديد الزَّاي، وَهُوَ مَعْرُوف، وَفِيه سِتّ لُغَات"(عمدة القاري: ٢٥:١٢).

إبخاس حقه، وهو ما أكده أيضًا النهي بقوله: (ولا تظلمني)، الذي أراد به الترهيب من عدم إيتائه ما يستحق، مع ما توحي به تلك الألفاظ في ظاهرها من عنف وجزع، وتهديد بعقاب الله وغضبه؛ لما خيل إليه من ظلم لحقه، وقد قيل إنَّ "ظَاهِرُ كَلَامِهِ عُنْفٌ، لَكِنَّ بَاطِنه حَقٌّ وَلُطْفٌ "(١).

ولهذا أجابه بقوله: (اذْهَبْ إِلَى ذَلِكَ البَقَرِ وَرَاعِيهَا، فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَهْزَأْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أَهْزَأُ بِكَ، فَخُذْ ذَلِكَ البَقَرَ وَرَاعِيَهَا، فَأَخَذَهُ فَانْطَلَقَ بِهَا).

وهنا تضمنت أفعال الأمر (اذهب، واتق، وخذ) معنى الالتماس، أما النهي في قول الأجير (لا تهزأ بي)، فقد تضمن معنى الاستبعاد، وإنكار أن يكون ذلك الذي يشير إليه هو أجره، أو عوضًا عنه، وكل من التعريف بالإشارة، وصيغة الجمع هنا يدلان على كثرة ذلك البقر الذي أصبح له أجرًا، وتكرار جملة (ذَلِكَ البَقَرِ وَرَاعِيهَا)؛ لتأكيد قوله، وعدم الشك فيه؛ لما رأى من استبعاده، وعدم تصديقه؛ لأنه عوض يستبعده العقل، وتنكره العادة، كما حذف المسند من جملة (وَرَاعِيهَا) والتقدير (وخذ راعيها)؛ لدلالة ما قبله عليه، ووصل بين جملتي الأمر والنهي: (اتَّقِ اللَّهَ، وَلاَ تَهْزَأْ بِي)، للتوسط بين الكمالين؛ لاتفاقهما في الإنشائية لفظا ومعنى.

وأتى بالنفي مؤكدا بـ(إنَّ) المضافة إلى ضميره، مع ذكر المتعلق بقوله: (إِنِّي لاَ أَهْزَأُ بِكَ)؛ لتأكيد عدم استهزائه؛ لتوهمه ذلك؛ لكثرة ما رآه، ولذا جاء بالتأكيد؛ لحاجته إليه، وإثبات صدقه، والذي نتج عنه قوله: (فَأَخَذَهُ فَانْطَلَقَ بِهَا)، وهو مسبب عن التأكيد، والعطف بـ (الفاء)، وتكرارها؛ للإشارة إلى سرعة أخذها كاملة لم يغادر منها شيئًا.

---

(١) مرقاة المفاتيح: ٣٠٩٥:٧.

وأتى هنا باسم الإشارة (ذلك) في قوله: (فَخُذْ ذَلِكَ البَقَرَ وَرَاعِيَهَا، فَأَخَذَهُ فَانْطَلَقَ بِهَا)، باعتبار السوَاد المرئي من البقر، وبضميره مؤنثا باعتبار الجنس[1]، كما يرجع الضمير في (فأخذه) إلى الراعي، والمراد فأخذ الراعي، وانطلق بالبقر.

وبعد سرد تلك الشخصية ما حدث منها، نجد التوجه مرة أخري إلى خطاب المولى –سبحانه– عن طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة بقوله: (فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ اللَّهُ عَنْهُمْ)، وفي الجملة تكرار للشرط السابق بـ (إنَّ)؛ لتأكيد إخلاص عمله لله وحده، فإن كان لهذا العمل قبول، ومنزلة، فهو يتوسل به؛ لانفراج ما بقي من الصخرة، وفي التعبير إيجاز بحذف معمولي الفعل–الجار والمجرور– والمفعول، للعلم بهما، والتقدير (فافرج عنا ما بقي من الصخرة، ففرجها الله عنهم).

ومن خلال سرد تلك القصة يتضح تأكيد النبي ﷺ على فضل حفظ الأمانة، والعمل على أدائها كاملة غير منقوصة، كما ورد عنه –عليه السلام– أنه أثنى على صاحب هذا العمل الجليل الذي لا يعمله إلا تقي، يخشى الله، ويبذل الخير دون مقابل؛ لترغيب أمته في العمل مثله؛ لينالوا أجره، ويصلوا إلى منزلته، فقد كان –عليه السلام– لا يتكلم بشيء إلا لفائدة[1]، يعلِّمها المسلمون؛ ليعملوا بها، وذلك منهجه الذي اتبعه ﷺ مع أمته؛ لتربيتها على الفضائل وتوجيهها لما في خيرها، وصلاحها.

---

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح :٧:٣٠٩٣.

(١) ينظر: عمدة القاري : ١٢:٢٥.

كما دلت الفاء في القصة على سرعة الإجابة، وانفراج الصخرة، وهنا ذكر الفاعل وهو المولى –جل شأنه– مع العلم به؛ للدلالة على جلال قدرته، ونفاذ إرادته، وعظيم إكرامه–سبحانه–، فعندما أراد ابتلاءهم أرسل المطر الذي تسبب في سقوط الصخرة على باب الغار الذي احتموا به، وعندما تضرعوا بالدعاء، وتوسلوا بأعمالهم الصالحة أزال كربهم، وكشف همهم، وأزاح الصخرة عنهم، بقدرته، وإرادته التي يخضع لها الكون كله.

ويتبين لنا من خلال سرد القصص الثلاث أهمية الدعاء وقت الكرب، أو الضيق، وأن التوسل إلى المولى –سبحانه– بالأعمال الصالحة التي خلصت فيها النية لله، من أنفع الاعمال التي تزال بها البلايا، وتكشف بها الأزمات.

ولهذا نلحظ أن كل شخصية من الشخصيات الثلاث تختم قصتها بقولها: (فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِك، فَافْرُجْ لَنَا)، وتكرار تلك الجملة الشرطية من كل شخصية منهم، إقرار وتأكيد على إخلاص أعمالهم لله وحده؛ ولذا كان جزاؤهم عنده أن كشف كربهم، وأزاح الصخرة عنهم، وأبدل خوفهم فرجا، وحزنهم فرحا، ولو أن شخصية واحدة من الشخوص الثلاثة لم يكن عملها خالصا لوجه لله، لهلكت، وهلكوا جميعا؛ كما أن الأعمال التي لا تخلص النية فيها لله –تعالى– ويكون غرضها السمعة، والمباهاة، أعمال محبطة مذمومة، لا خير فيها، ولا طائل منها.

ومن الظواهر الأسلوبية البينة في سرد القصة تكرار (الفاء) الدالة على التعقيب، مع أكثر الأحداث، والوقائع، وتلك دلالة زمنية تشير إلى قصر الزمن، وسرعة الأحداث، وتتابعها في وقت ليس بالطويل.

كما نجد تعدد الضمائر وتنوعها التي ربطت بين الجمل، والأحداث ودلت على الصلة بينها، بسرد بليغ يتسم بالتأنق في الأسلوب، والتفنن في

الصياغة، بما يتناسب والأسلوب القصصي، بعيدا عن السأم الذي قد يتسبب عن السير على طريق واحد، أو صيغة واحدة، ومن ذلك ما نجده من انتهاج ثالثهم منهجا مخالفا لمنهج سابقيه، حيث بدأ الأول والثاني حديثه بقوله: (اللَّهُمَّ إِنَّهُ)، يقصد الشأن، أما الثالث فقال: (اللهم إني)، بإضافة (إن) المؤكدة لضميره؛ لزيادة تأكيد تلك القصة التي يندر حدوث مثلها.

ومن مظاهر الاعجاز في سرد القصة دلالتها على قدرة المولى –سبحانه–، وعظم إرادته، وقربه ممن توجه إليه وتضرع بالدعاء قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُون﴾(النمل:٦٢)، وقال:﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة:١٨٦)، كما يشير إلى إنجاز وعده –سبحانه– لمن أصلح، وأخلص العمل، قال تعالى: ﴿وَمن يتق الله يَجْعَل لَهُ مخرجا﴾(الطَّلَاق:٢) . وقال: ﴿وَمن يتق الله يَجْعَل لَهُ من أمره يسرا﴾ (الطَّلَاق: ٤)[(١)]، فمهما عظم الكرب، أو اشتد البلاء، فإن إخلاص العمل، والتضرع إليه سبحانه، يكشفه ويذهب غمته.

قال الإمام الشافعي[(٢)]:

وَلَرُبَ ضَائِقَةٍ يِضِيقُ بِهَا الفَتَى ∴ ذَرْعًا وَعِنْد اللهِ مِنْهَا المَخْرَج
ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا ∴ فُرِجَتْ وَكُنْتُ أَظُنُّهَا لَا تُفْرَج

(١) ينظر عمدة القاري : ٢٦:١٢

(٢) ديوان الامام الشافعي: ص ٣٢ ، تحقيق محمد عفيف الزعبي ، ١٣٩١هـ- ١٩٧١م.

وفي تلك القصة لجأ الشخوص الثلاثة في محنتهم إلى المولى – سبحانه– يتضرعون إليه بصالح أعمالهم، والتي تعد من أعظم، وأهم الأعمال التي يحتاج إليها المجتمع المسلم؛ ليرقى ويسعد كل فرد فيه، ولو أن واحدا من هؤلاء الثلاثة، لم يرق عمله إلى الإخلاص، أو القبول، لم ينتفع الآخرون بأعمالهم، لذلك أراد النبي ﷺ من خلال هذا الحديث الحث والتأكيد على أهمية تحقيق التكامل بين الأعمال الصالحة، وعمل كل فرد من أفراد المجتمع على تحقيق ذلك كل في موقعه الذي يكون فيه، فصلاح المجتمع مرهون بصلاح أفراده، وكل نفر من هؤلاء الذين ورد ذكرهم في الحديث له تأثير في المجتمع الذي يعيش فيه، وهم يمثلون فئاته المختلفة، سواء كانت في علاقة الشخص بأهله، وما يجب أن يتحلى به معهم من بر، وإحسان، أو علاقته بغير المحارم، وما يجب أن يكون عليه تعفف، وخوف من الرحمن، أو علاقة صاحب العمل بمن يعمل معه، وما ينبغي أن يتحلى به كل منهما من أمانة، وإصلاح.

تلك العلاقات الثلاث تمثل في مجملها العلاقات بين أفراد المجتمع كله، وقد وضعت الشخصيات الثلاث الأسس السليمة التي يجب أن يقوم عليها المجتمع المسلم من أخلاق سامية، وصفات كريمة ينبغي أن يتحلى بها أفراده، لعظيم نفعها، وجميل أثرها؛ لأن المجتمع الذي يسوده البر، والعفة، والأمانة، وجلب الخير لأفراده، مجتمع يسموا إلى المثالية، ويصل إلى أعلى درجات الكمال(١).

كما أن اختلاف أعمال هؤلاء الرجال الثلاثة، وتنوعها، يشير إلى أن الأعمال التي يرقى بها المجتمع كثيرة، فمن لا يتيسر له عمل يُتاح له آخر، والمجتمع الصالح لا يرتقي إلا بها جميعا، فكل عمل صالح يكمل عملًا آخر، فتتكامل بذلك الأعمال، وينتفع أهلها، وتسير الحياة على النهج الصحيح الذي أراده المولى سبحانه.

---

(١) ينظر الرابط الالكتروني http://www.saaid.net/Doat/brigawi/١٤.htm

وقد أكد النبي ﷺ في هذا الحديث على فضل بر الوالدين، وفضل العفاف، والبعد عن المحرمات، خاصة عند تيسر أسبابها، والقدرة عليها، وفضل حفظ الأمانة، وأداء الحقوق لأصحابها، وبيان حرصه -عليه السلام- على صلاح أمته، وإرشادها إلى أفضل الأعمال، وأعظمها أجرا.

وقد استخدم في السرد طريق الأسلوب الخبري الذي يناسب السرد القصصي، وهو أسلوب رائع يعمل على توضيح المعنى وتقريره، إلى جانب استخدام كل من أساليب الأمر، والدعاء، والشرط، والنهي، والحذف، والتشبيه، والمجاز، والكناية، و المقابلة، والجناس الاشتقاقي، مع ربط الأحداث بـ (الفاء) العاطفة الدالة على تعاقب الزمن وسرعة الأحداث .

* * * * * *

المحور الثاني

الخصائص البلاغية في قصة أصحاب الغار

وبعد تلك الجولة الشيقة، والممتعة، في رحاب السنة المطهرة، من خلال قصة أصحاب الغار، أعرض بعض السمات، والخصائص التي ظهرت من خلال دراسة القصة منها:

١- يعد القصص النبوي مصدرا أساسيا لمبادئ الإسلام، وأخلاقياته، فهو نبع زاخر بالمثل العليا، التي يستمد منها الخلق الطيب، والعمل الصالح، وقصة أصحاب الغار، خير شاهد على ذلك، فهي تعد من روائع البيان النبوي، وأعظم القصص، التي تبرز أهمية الأعمال الصالحة، ومنزلتها عند المولى -سبحانه- ومنزلة من عمل بها.

٢- ذكر النبي ﷺ في ذلك الحديث الشريف ثلاثة من القصص العظيمة التي تحقق صلاح المجتمع، ورقيه؛ لاشتمالها على عناصره، وفئاته المختلفة، حيث تظهر أحداث القصة الأولى علاقة الشخص بوالديه، وأهمية البر في تلك العلاقة الإنسانية السامية، والقصة الثانية تظهر أحداثها علاقة الشخص بغير المحارم، ودور العفة في المحافظة على قيم المجتمع، واستقراره، أما القصة الثالثة، فتظهر أحداثها علاقة صاحب العمل بعامله، ودور تلك العلاقة في تحقيق النفع، وحصول البركة، التي تجلب الخير للمجتمع كله.

٣- لم تذكر القصة أسماء تلك الشخصيات؛ لأن الغرض منها ليس التمجيد لهم، ولا التخليد لذكراهم، ولكن الغرض هو أخذ العظة من قصتهم، وبيان وسيلتهم للنجاة مما أصابهم، وما كان لأعمالهم الصالحة من فضل، كان سببًا في نجاتهم، ونجاة من يتمثل بهم.

٤- أما عن زمن القصة فإننا نجد في القصة زمنين متباعدين هما زمن حدوث القصة وهو العهد القديم لبني اسرائيل، وزمن سردها وهو عصر النبي ﷺ.

٥- أما عن مكانها كما ورد في الحديث فهو غار في بطن جبل، أغلق عليهم بصخرة عظيمة، لم تستطع قواهم دفعها، مع ما يوحي به ذلك المكان الموحش في النفس من رهبة، وضيق، وتوقع الهلاك، والموت.

٦- أما عن أفكار القصص الثلاثة فقد تمثلت الفكرة في القصة الأولى في بيان فضل بر الوالدين، وأهميته، وما يتبعه من خير، وأنه من أهم الخصال، والقيم الإنسانية، التي ينبغي مراعاتها، والالتزام بها.

وجاءت الفكرة في القصة الثانية في بيان فضل العفاف، والبعد عن المحرمات، خاصة بعد تيسر أسبابها، والهم بفعلها، ثم تركها خوفا من الله وخشيه؛ لأن العفة "تحمل على الحياء الذي هو رأس كل خير ، وتمنع عن الفحشاء"(١)، التي هي رأس كل شر، إلى جانب ما يؤكد عليه الحديث من "أَنَّ تَرْكَ الْمَعْصِيَةِ يَمْحُو مُقَدِّمَات طَلَبهَا"(٢) بما يشير إلى سماحة الدين، وعظمته، ورحمته -سبحانه- بعباده التائبين، فقد تدفع الحاجة البعض إلى الوقوع في المعصية، ولكن النفس الذكية التي تراقب المولى سبحانه وتخشاه، تكون في حفظه، ورعايته، يحميها ويصرف عنها ما يضيرها، مع التأكيد على أن الخوف من الله-تعالى- وخشيته، هو سبب النجاة من المعاصي، والوصول لأعلى المنازل، والدرجات، وما يترتب عليه من استقامة سلوك الفرد، وصلاح المجتمع.

ومن القيم الجليلة التي عني بها الإسلام كثيرًا، وأكدت عليها فكرة القصة الثالثة هي حفظ الأمانة، وبيان فضل أدائها، وما تدل عليه من

---

(١) الأسباب المفيدة في اكتساب الأخلاق الحميدة: محمد بن إبراهيم بن أحمد الحمد، الناشر: دار ابن خزيمة ص١٠، الطبعة: الأولى ١٤١٨هـ.

(٢) دروس وعبر من صحيح القصص النبوي: ٢٧.

خلق كريم، ونفس خيرة تعمل على معاونة الآخرين، وما يترتب على ذلك من نفع عميم على الفرد، والمجتمع، والذي يظهر ذلك ثناء النبي ﷺ علي صاحب هذا الخلق، وما نتج عن فعله هذا من بركة أحلها الله في هذا المال القليل الذي رغب عنه صاحبه، فأصبح مالًا كثيرًا، بفضل النية الصالحة.

كما بينت القصة حرص ذلك الرجل المؤمن الذي صدق إيمانه على مراعاة المولى سبحانه في السر والعلن، وحرصه على أداء حق أجيره، وما نتج عنه، وبيان فضل الأمانة، والسماحة، وتنمية روح التكافل، والمحبة ،والتعاون بين الناس.

٧- **أما عن هدف هذه القصص جميعًا فهو إظهار الأخلاق المثالية لهؤلاء الرجال الثلاثة، وما دلت عليه من رسوخ عقيدتهم، وصدق إيمانهم، وقوة صلتهم بالمولى –سبحانه وتعالى–ومنزلتهم عنده، حيث صلحت أعمالهم، وخلصت لله وحده، فكانت سببًا في نجاتهم مما قدر الله لهم من ابتلاء، وهو ما يحمل المسلمين، وصادقي الإيمان على اتخاذهم قدوة، ومثلا، فيحاكون أعمالهم، ويحرصون على العمل بها، علهم يصلون إلى درجتهم، وينالون منزلتهم عند المولى سبحانه.**

٨- **من الواضح في تلك القصص الثلاث علو همة أصحابها، وسمو نفوسهم التي حرصت على الوصول الى أعلى المنازل، والدرجات.**

فمنهم البار الذي ألزم نفسه ما لا يلزمها، وهو حرصه على إطعام والديه قبل أبنائه، رغم حاجتهم الشديدة للطعام، وكان يكفيه الاحتفاظ بما يحتاجون منه، وكذلك صاحب العمل الذي كلف نفسه عناء إنماء مال أجيره، من غير أن يأخذ لذلك مقابل، وكان يكفيه حفظ حقه، وإعطائه إياه من غير زيادة، ولكنهما آثرا زيادة البر، والعطاء، عملا خالصا لله وحده، فزادهم الله علوًا، ورفع منزلتهم.

أما الآخر فقد ترفع عن الخطيئة، وزجرته نفسه عن الوقوع فيها، فحرم نفسه متعة تمنتها، وسعت إليها جاهدة، وعندما بلغتها، منع نفسه عنها، في أكثر فتراتها ضعفًا، فرفع بعمله هذا من حضيض الرذيلة إلى أعلى المنازل.

قال ابن القيم رحمه الله: فمن علت همته، وخشعت نفسه، اتصف بكل خلق جميل، ومن دنت همته، وطغت نفسه، اتصف بكل خلق رذيل(١).

تلك الهمة العالية، والخلق الرفيع، الذي استقر في نفس هؤلاء، دفعهم لفعل ما يجعل أعمالهم الصالحة في أعلى منازل القبول والإكرام.

٩- كما برز لدى هؤلاء الثلاثة أيضًا صفة جليلة، وخلق راق، هو مجاهدة النفس ودفع هواها، والقدرة على التغلب على ضعفها، فكل نفر من هؤلاء جاهد نفسه، وحمَّلَها ما يزيد على قدرتها، ليصل إلى المنزلة الي يرجوها عند المولى سبحانه، وذلك "لأن الخلق الحسن نوع من الهداية، يحصل عليه المرء بالمجاهدة، قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت:٦٩) .

والمجاهدة لا تعني أن يجاهد المرء نفسه مرة أو مرتين أو أكثر، بل تعني أن يجاهد نفسه حتى نهاية الأجل؛ لأن المجاهدة عبادة، والله- تبارك وتعالى- يقول: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(الحجر: ٩٩)(٢)

١٠- وبذلك نجد في كل قصة من قصص الحديث خلقا كريمًا، ومثلًا تربويًا، وقيمة إنسانية، تمثلت في الشخصيات الثلاث، التي صورت أرقى الخصال، وأعظم الصفات، التي ينبغي على المسلم أن يتصف بها، بما تظهر عظمة الإسلام وكماله.

---

(١) ينظر: الأسباب المفيدة في اكتساب الأخلاق الحميدة: ص١٢.

(٢) ينظر: الأسباب المفيدة في اكتساب الأخلاق الحميدة: ص٧.

١١- وضحت القصص الثلاثة أهمية الدعاء، وفضله، فإذا أخلص العبد في دعاءه، وعمله، تتابع عليه الخير، والبركة"[١].

١٢- يتضح من التقدمة التي ذكرها النبي ﷺ في بدء سرد القصص الثلاث تهيئتهﷺنفس المتلقي، وتوجيه توقعاته نحو أحداث القصة، ووقائعها.

١٣- كما ظهر من خلال بِنْيَة القصة هيمنة الحوار على سرد الأحداث، فقد ذكرت الأحداث الرئيسية في القصة على هيئة حوار بين الأشخاص الثلاثة، صور الحالة النفسية التي سيطرت عليهم، وحرص كل شخصية منهم على تذكر أصلح أعماله؛ لتكون سببا في نجاته، ونجاة من معه، وبذلك يظهر أهمية التكامل بين الأعمال الصالحة، التي أخذت بأيديهم جميعا نحو النجاة.

١٤- كما ساهم الحوار في التحام الزمن القصصي بالزمن السردي، إذ أصبح زمن السرد هو زمن الأحداث، وصار المتلقي وكأنه يشاهد الحوار، ويرى أحداثه.

١٥- نلحظ هيمنة الرؤية السردية المحايدة على حكي القصص في الحديث، حيث تم تنظيم الحكي من موقع خارجي، وتركت الشخصيات تتحدث بأصواتها، دون تدخل من الراوي، وهو أعظم راوٍ، وأبلغ محدث، فهو الرسول الكريم، مما يعطي انطباعا للمتلقي بصدق ما يتلقى، إذ يجد نفسه مشاركا في الحكي بوصفه مشاهدا حاضرا، أو مستمعا لما يجري من حوار[١] بين الشخصيات الثلاث.

١٦- كان للسرد القصصي في الحديث أثر عظيم على النفس والقلب، خاصة

---

(١) ينظر : الأسباب المفيدة في اكتساب الأخلاق الحميدة ، ص٦.

(١) بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم: لمحمد مشرف خضر ، ص ٢٠٣.

أنه صادر عن أبلغ الخلق، وأفصحهم، الذي يعد كلامه "أبلغ كلام يجري به لسان بشر بعد القرآن، بلا تكلف، أو تصنع، أو تقعر، ومن هنا ندرك الفرق جليا بين صناع الكلمة الذين نلمس في كتابتهم ذكاء، وعبقرية، ونبوغا، ونلمس في صناعتهم روح الإبداع، ولكنهم لا يحركون في أعماقنا ما يحركه كلام الرسول من الشعور العميق بالحياة ، وبما وراء الحياة معا"(١)، فكلامة، وأقواله –عليه السلام– بحق أفصح، وأبلغ ما نطق به بشر.

* * * * * *

(١) مع الرسول ﷺ في بلاغته وهجرته واسرائه، ومعراجه: لمحمد الصالح الصديق، ص ٥٦، ط٢، ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية بن عكنون الجزائر.

الخاتمة

للفن القصصي تأثير كبير على النفس البشرية، وقد أدرك النبي ﷺ ذلك الشغف النفسي، والحب الفطري؛ لسماع القصص، والتأثر بها، فاتخذها وسيلة دعوية، وطريقة تربوية، يرسخ من خلالها المبادئ الفاضلة، والقيم الراقية، التي يريد غرسها في نفوس الأمة، والعمل بها، للفوز بسعادة الدنيا، والآخرة، ومن أبرز نتائج تلك الدراسة ما يلي:

١- **يعد أسلوب السرد القصصي من أنجح الأساليب النبوية في التوعية، والإرشاد، والتوجيه لأفضل الأعمال وأجل الأخلاق.**

٢- **برز في القصص الثلاث أسس السرد من أحداث، وشخوص، وزمان، ومكان، وفكرة، وهدف، فهي مثال رائع للبناء السردي المتكامل، والهادف.**

٣- **تنوعت أفكار الحديث بين البر، والعفة، والأمانة، وهي من الفضائل التي يحرص عليها الصالحون من البشر؛ لأهميتها، وفضلها، في إزالة الهموم، وتفريج الكروب.**

٤- **يؤكد الحديث على قيمة التكامل بين الأعمال الصالحة، وحاجة المجتمع إليها جميعا، وأثر ذلك لاستقامة أحواله، والنهوض به، والتخلص مما يضعفه.**

٥- **قدرة القصة على التأثير في السامع، وامتاعه، حيث كان للقصص النبوي أثر كبير على كل نفس مؤمنة بالله ورسوله، لما تتسم به من الواقعية، والصدق، والبعد عن الخيال الذي لا أثر له في الواقع، والتركيز على الهدف المقصود من القصة.**

٦- **تميزت القصة بالإيجاز في الألفاظ والعبارات، مع غزارة المعاني، والدلالات التي تظهر أعظم الأخلاق، وأجل الصفات، حيث ذكر النبي ﷺ في عدد قليل من الجمل، ثلاث من أعظم الأخلاق الإنسانية،**

التي يبنى عليها صلاح المجتمع، بما يميز القصة النبوية عن غيرها من القصص التي قد تسرد وقائع، وأحداث كثيرة، من غير أن نصل منها إلى قيمة.

٧- ظهور الإيجاز بالحذف في مشاهد كثيرة من القصص الثلاث حيث يتخطى أحداثًا لا تأثير لها في القصة، تاركًا بذلك المجال مفتوحا أمام المتلقي ليتخيل ما يمكن أن يحدث من وقائع، وأحداث لم ترد فيها.

ولذلك جاء عرض الأحداث في القصص الثلاثة عرضا مجملا سريعا، لم تذكر فيه إلا الأحداث الأساسية التي لا يتحقق الغرض بدونها، تاركا التفاصيل الجزئية التي لا أثر لها في الأحداث.

٨- تتميز الألفاظ والعبارات في القصص الثلاث بالدقة، فكل لفظ له دلالته التي لا يستقيم الغرض إلا بها، إلى جانب ما تشير إليه الأساليب والعبارات من بلاغة راقية، وهادفة، بألفاظ وعبارات سهلة، لا تكلف فيها، ولا غموض، ولا تعمد للزخرفة اللفظية التي لا أثر لها في المعنى.

٩- يبدوا جليا في الحديث النظم المتماسك، والبناء المتكامل من الفصل والوصل بين الجمل، والعبارات، وهو سمة القول البليغ، حيث ينتقل المخاطب فيه مع القصة بين الأحداث، والوقائع في سلاسة وانسجام.

١٠- كما يلاحظ تسلسل الأحداث تسلسلا منطقيا وزمانيا في الوقت نفسه، حيث يعتمد كل حدث على سابقه، وفق امتداد زمني متصل وكل حدث من الأحداث له دوره الذي يحدده السياق الوارد فيه.

١١- تعد القصة دليل على صدق نبوته ﷺ، وأن ما حدَّث به وحي من الله، وليس من عنده، فهو أمي لم يطلع على سيَّر السابقين، وأخبارهم بل كل ما أخبر به من غيبيات ماضية، أو مستقبلية هي وحي من الله، تأييدًا له، وتصديقًا لدعوته.

١٢- يمتاز القصص النبوي بأنه أحسن القصص، وأبلغه، لوروده عن خير

الخلق وأصدقهم، فقد خلا من المبالغات، التي تشيع في قصص البشر وحكاياتهم، التي تأباها العقول السليمة، والطباع السوية.

١٣- ساهم الحوار في إثراء النص القصصي عن طريق تبادل الحوار بين النفر الثلاثة، والعمل على التفكير لإيجاد حل لما وقع بهم من بلاء، بدءًا من التوصية بالدعاء للخروج مما حل بهم، وحتى سرد كل شخصية منهم قصته، وما في ذلك من وتشويق للأحداث والوقائع.

١٤- من أظهر الأساليب البلاغية الواردة في الحديث، التي استدعاها الغرض من القصة، ما يلي:

- التعريف في كل من: (ثَلاَثَةُ نَفَرٍ- وغارهم-المَطَرُ- الجَبَلِ-الصِّبْيَةُ- ذَلِكَ- مَا...الخ)

- إيجاز الحذف مثل: (فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ).

- التقديم الذي قصد به العناية مثل: (فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ- فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً)، والقصر مثل: (أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا لِلَّهِ صَالِحَةً).

- الشرط مثل:(فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ).

-نجد التعبير بالأفعال الماضية الدالة على وقوع الحدث، والحركة، وحكاية القصة مثل: (فَحَلَبْتُ- فَطَلَبْت- فأَبَتْ- فَسَعَيْتُ- فَقُمْتُ- فَعَرَضْتُ- فَتَرَكَهُ- جَمَعْتُ- فَأَخَذَهُ- فَفَرَجَ).

- صيغة المضارع الدالة على استحضار الصورة الماضية : مثل: (يَتَمَاشَوْنَ- يَرَوْنَ - أَزْرَعُهُ).

- صيغة الأمر: مثل: (فَجَاهِدْ- انْظُرُوا- فَادْعُوا - فَافْرُجْ - أَعْطِنِي- اذْهَبْ- اتَّقِ - فَخُذْ).

- صيغة النهي: بـ (لا تظلمني- لا تهزأ بي).

- التكرار في كل من: الدعاء: بـ (اللَّهُمَّ إِنَّهُ)، والشرط: بـ (إن): في (فَإِنْ

كُنْتَ تَعْلَمُ)، والعطف بـ(فاء) التعقيب: مثل: (فَمَالُوا، فَانْحَطَّتْ، فَأَطْبَقَتْ، فَقَالَ، فَادْعُوا).

- التفصيل بعد الإجمال في: (ثلاثة نفر:...،فَقَالَ أَحَدُهُمْ:...،وقَالَ الثَّانِي:...،وَقَالَ الآخَرُ:...)
- الالتفات من الخطاب إلى التكلم :(فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً، نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ).
- النداء: بـ (– اللَّهُمَّ– يَا عَبْدَ اللَّهِ).
- الرجاء: في (لَعَلَّهُ يَفْرُجُهَا).
- الوصل للتوسط بين الكمالين في: (أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَبْدَأَ بِالصِّبْيَةِ قَبْلَهُمَا).
- تعدد الضمائر وتنوعها؛ للربط بين العبارات، والجمل مثل: (إِنِّي– فَجَاءَنِي– لاَ تَظْلِمْنِي– أَعْطِنِي– حَقِّي– لاَ تَهْزَأْ بِي–)، (– لاَ أَهْزَأُ بِكَ– وَجْهِكَ، ....). (– فَعَرَضْتُ– جَمَعْتُ– فَقُلْتُ– فَعَلْتُ– كُنْت)، (عَمِلْتُمُوهَا– فَادْعُوا–)،(عَلَيْهِ – حَقَّهُ– فَتَرَكَهُ– فَأَخَذَهُ –لَعَلَّهُ)، (يَفْرُجُهَا– وَرَاعِيهَا– إِلَيْهَا– نَفْسَهَا– آتِيَهَا– فَلَقِيتُهَا)، (غَارِهِمْ– عَلَيْهِمْ– بَعْضُهُمْ).
- والتشبيه الذي يوضح المعنى، ويقرب الصورة في: (أُحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ).
- والمجاز المرسل: في (فجئت إليهما بالحلاب– ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ).
- الاستعارة: في (أخذهم المطر).
- والكناية: عن صفة ((فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ– لاَ تَفْتَحِ الخَاتَمَ).
- المقابلة بين جملتي :(شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ).
- الجناس الاشتقاقي في: (فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالحِلاَبِ – دَأْبِي، وَدَأْبَهُمْ– فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا. فَفَرَجَ لَهُمْ فُرْجَةً– اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا).

توصية البحث:

١- العناية بفن القصة النبوية ودراستها دراسة متأنية تظهر أثرها في التربية، والتوجيه للأعمال الصالحة، وإبراز ما فيها من إعجاز بلاغي، ولغوي، يعمل على توضيح البلاغة النبوية وأسرار إعجازها، ويبرز ما تحمل من قيم راقية، وأخلاقيات مثالية، تظهر عظمة تعاليم الدين وكماله.

٢- العمل على دراسة قصص الصالحين، والعناية بالنماذج المُثلى من أهل التقوى والإيمان، دراسة تبرز ما بها من قيم جمالية، وأساليب لغوية، تعمل على نشر اللغة السليمة، والأساليب الصحيحة بين الناس، بما يرسخ ملكة التعبير الصحيح لديهم، إلى جانب بيان ما تحمل من قدوة، ومُثُل، وجعلها نبراسا يضيئ الطريق أمام كل من أراد الوصول للدرجات العليا، والمنازل الرفيعة في الدنيا، والآخرة، وتراثنا الإسلامي مليء بقصص الصالحين من أهل الأيمان، الذي ينبغي معرفة قصصهم، والاقتداء بأعمالهم.

* * * * * *

فهرس المراجع

- الأدب وفنونه – دراسة ونقد: عز الدين إسماعيل (المتوفى: ١٤٢٨هـ)، الناشر: دار الفكر العربي.
- الأساليب التعليمية في السنة النبوية : لوفاء بنت عبد العزيز بن حمد، مجلة كيرالا، سنة ٢٠١٢م.
- الأسباب المفيدة في اكتساب الأخلاق الحميدة: محمد بن إبراهيم بن أحمد الحمد، الناشر: دار ابن خزيمة، الطبعة: الأولى ١٤١٨هـ
- أسد الغابة في معرفة الصحابة: لابن الأثير، تحقيق: محمد ابراهيم البنا محمد أحمد عاشور، ط دار الشعب، مصر، بدون.
- أصول البحث الأدبي ومصادره: المؤلف: مناهج جامعة المدينة العالمية، ماجستير، الناشر: جامعة المدينة العالمية.
- الأصول في النحو: أبو بكر السراج، المحقق: عبد الحسين الفتلي، الناشر: مؤسسة الرسالة، لبنان – بيروت.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : الرافعي، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٧١م .
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: للأنباري (المتوفى: ٥٧٧هـ)، الناشر: المكتبة العصرية، الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م).
- بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم: لمحمد مشرف خضر، رسالة دكتوراه في الآداب.
- التحرير الأدبي: د. حسين علي محمد حسين (المتوفى: ١٤٣١هـ)، الناشر: مكتب العبيكان، الطبعة: الخامسة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- تهذيب اللغة: لأبي منصور الهروي، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.

- **التوضيح لشرح الجامع الصحيح: لابن الملقن (المتوفى: ٨٠٤هـ)، المحقق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: دار النوادر، دمشق، سوريا، ط: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.**
- **الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية : لكمال عزالدين ، دار اقرأ.**
- **خصائص القصة الإسلامية : مأمون فريزر جرار، ط : الأولى ، ١٩٨٨م، دار المنارة للنشر، جدة ، السعودية**
- **دروس وعبر من صحيح القصص النبوي: لشحاتة محمد صقر،، الناشر: مكتبة دار العلوم، البحيرة (مصر).**
- **ديوان الامام الشافعي: تحقيق محمد عفيف الزعبي ، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.**
- **السردية العربية، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي: لعبد الله إبراهيم، ط:٢، ٢٠٠٠، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت.**
- **صحيح البخاري: تحقيق: محمد زهير بن الناصر، ناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.**
- **صحيح القصص النبوي : د/ عمر سليمان عبد الله الأشقر ، نشر دار النفائس الاردن، ط الاولى ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.**
- **صحيح مسلم: تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر: دار إحياء التراث العربي ، بيروت.**
- **عمدة القاري شرح صحيح البخاري: لبدر الدين العيني ، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت**
- **فتح الباري شرح صحيح البخاري: لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.**

- **الفن القصصي في لقرآن الكريم: لمحمد أحمد خلف الله، ط٣، ١٩٦٥ ،مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة.**
- **القصة والرواية: د. عزيزة مريدن ، دار الفكر، دمشق ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م،**
- **لسان العرب: لابن منظور، نشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٤هـ.**
- **اللمع في العربية: بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، المحقق: فائز فارس، الناشر: دار الكتب الثقافية – الكويت.**
- **المحكم والمحيط الأعظم: لابن سيده المرسي، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م مادة**
- **مختارات من القصص الصحيح في السنة النبوية : لطلعت محمد عفيفي، مكتبة الإيمان ط الأولى ١٤٢٣هـ.**
- **مختار الصحاح: للرازي، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.**
- **المخصص: لابن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: خليل إبراهم جفال ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.**
- **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: لأبي الحسن نور الدين الملا الهروي القاري ، الناشر: دار الفكر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.**

- **معجم الفروق اللغوية: لأبي هلال العسكري،(بتصرف)، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ**
- **مع الرسول –صلى الله عليه وسلم– في بلاغته وهجرته واسرائه، ومعراجه: لمحمد الصالح الصديق، ، ط٢، ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية بن عكنون الجزائر.**
- **مقاييس اللغة: لابن فارس، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م**
- **مكونات السرد في النص القصصي الجزائري الجديد: عبد القادر بن سالم، الاتحاد العربي للكتاب، دمشق ٢٠٠١م.**
- **(همع** الهوامع **: للسيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة التوفيقية – مصر.**

–كتابة : روان صلاح آخر تحديث ٠٤ :أكتوبر ٢٠٢٠:٤٦٢٠ ,, المرسال : الرابط الاكتروني:

https://www.almrsal.com/post/٩٤٨٩٣٤#%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%B٣%D٨%B١%D٨%AF_%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٩%٨٥%D٨%AA%D٨%B٣%D٩%٨٤%D٨%B٣%D٩%٨٤.

–خصائص_ النص_ السردي مقالة الرابط الإلكتروني :

https://mkaleh.com/%D٨%AE%D٨%B٥%D٨%A٧%D٨%A٦%D٨%B٥_%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٩%٨٦%D٨%B٥_%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%B٣%D٨%B١%D٨%AF%D٩%٨A

ينظر الرابط الالكتروني

- http://www.saaid.net/Doat/brigawi/١٤.htm

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧٤١
المبحث الأول: بلاغة السرد القصصي	٧٤٤
المحور الأول: المقصود بالسرد القصصي	٧٤٤
أولًا: المقصود بالسرد	٧٤٤
أسس السرد	٧٤٥
طرق السرد	٧٤٦
عناصر السرد	٧٤٧
خصائص السرد	٧٤٨
ثانيًا: المقصود بالقصة	٧٤٩
مفهوم بالقصة	٧٤٩
الفرق بين القصة والحديث والخبر	٧٥٠
أنواع القصة	٧٥١
مفهوم السرد القصصي	٧٥١
المحور الثاني: القصة النبوية وخصائصها البلاغية	٧٥٢
مفهوم القصة النبوية	٧٥٢
خصائص القصة النبوية	٧٥٣
سمات البلاغة النبوية	٧٥٥
أنواع القصة النبوية	٧٥٧
المبحث الثاني من بلاغة النبوة في قصة أصحاب الغار	٧٥٩

الموضوع	الصفحة
المحور الأول: قصة أصحاب الغار من الوجهة البلاغية	٧٥٩
نص الحديث	٧٦٠
مقدمة القصة	٧٦٢
القصة الأولى	٧٦٧
القِصة الثانية	٧٧٤
القصة الثالثة	٧٧٩
المحور الثاني: الخصائص البلاغية في قصة أصحاب الغار	٧٨٧
الخاتمة	٧٩٣
فهرس المراجع	٧٩٨
فهرس الموضوعات	٨٠٢